



الحركات السلفية والقتالية (6)

حركة "نور الدين زنكي"

الاعتدال المزيف

تمهيد

حركة "نور الدين زنكي" هي واحدة من الفصائل المسلحة في سوريا. بدأت نواتها في الظهور المسلح في بلدة "قبتان الجبل" الواقعة في ريف حلب الغربي في تشرين الثاني من العام 2011، مع بداية الأحداث والتحركات الشعبية المعارضة لنظام الرئيس السوري بشار الأسد، وبروز الجماعات المسلحة، أي بعد 8 أشهر من بداية الحراك المعارض والتظاهرات في سوريا تقريباً¹. ولم تكن بعد معروفة بحركة "نور الدين زنكي"، بل عرفت بمجموعة "توفيق شهاب الدين"، نسبة إلى مؤسسها السلفي توفيق شهاب الدين المعروف بميوله التكفيرية، قبل عزله وتعيين علي سعيدو قائداً عاماً للحركة. وتعدّ الحركة "من أوائل المنضمين لمجلس قيادة الثورة السورية، كما أنّها من أوائل الفصائل المسلحة حصولاً على السلاح، وتحديداً صواريخ بي جي إم. 71 تاو المضادة للدبابات، ما جعلها الأكثر تسليحاً في مدينة حلب"².

وارتبطت الجماعة (حركة نور الدين زنكي) بجماعات مسلحة أخرى، قبل أن تتحوّل إلى حركة مسلحة ذات بنية تنظيمية قوية ومستقلة، فانضمت بداية "إلى لواء التوحيد" في تموز 2012، ثم إلى تجمع ألوية "فاستقم كما أمرت" في كانون أول من العام نفسه، وأطلقت على نفسها "كتائب نور الدين زنكي الإسلامية"، لكنّها ما لبثت أن انسحبت منه في أيار 2013، لتنضمّ في العام 2014 إلى ما يسمى "جيش المجاهدين" الإرهابي، قبل أن تعود وتنسحب في أيار 2014³، وإعلانها تغيير اسمها ببيان رسمي إلى "حركة نور الدين زنكي"، دون إيضاح للأسباب الكامنة وراء قرار انسحاب من جيش المجاهدين؛ وكان معروفاً أنّ قرار الاندماج الأوّل كان بدافع الحصول على تمويل⁴. وقد رجّح مراقبون أنّ قرار حركة "نور الدين زنكي" بالانسحاب من حركة "جيش المجاهدين" كان بسبب تمكّنها من توفير دعم مالي من الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا⁴.

ومن المعلوم أنّ حركة "نور الدين زنكي" من الفصائل المسلحة التي "تملك علاقات وثيقة مع تركيا"، وتتلقّى دعماً مالياً وعسكرياً ولوجستياً، مباشراً منها، وقد وسّعت علاقاتها مع مقاتلين من تركمان في شمال مدينة حلب،

¹ - الجزيرة، لا مكان لـ"تنظيم الدولة" بسوريا، (مقابلة أجراها تيسير علوي ضمن برنامج "لقاء اليوم" مع قائد كتائب نور الدين زنكي الإسلامية الشيخ توفيق شهاب الدين)، 14 آذار 2014.

² - إرم نيوز، من هي جماعة نور الدين زنكي المتهمة بذبح طفل في حلب؟، 19 تموز 2016.

³ - انظر: صفوان داؤد، حركة نور الدين زنكي؛ الاعتدال المُقنع، المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات، 25 آب 2016.

⁴ - بوابة الحركات الإسلامية، نور الدين زنكي "الإرهابية.. تتمركز في حلب وتتلقى دعم "أمريكي تركي"، السبت 6 آب 2016.

و"انددمجت مع مجموعة محلية من التركمان السوريين، وقامت سريعاً بتنصيب قائد تركماني عليها في 15 تشرين الثاني 2015، وهو ما حدث غالباً بتأثير تركي على المجموعتين"⁵.

ا. تنامي الحركة وتوسّع نفوذها

تمتلك حركة "نور الدين زنكي" حاضنة شعبية في الرّيف الغربي؛ نظراً إلى الأعداد الكبيرة من أبناء تلك القرى الذين التحقوا بصفوفها والخدمات المدنية التي تقدّمها للسكان المحليين، في ظلّ الواقع المعيشي المتدهور وقلة الموارد وعدم توفّر الحاجات الأساسية والخدمات الرسمية في المناطق الخاضعة للفصائل المسلحة، كما أنّ الهيمنة العسكرية والأمنية للفصائل المسلحة في مناطق سيطرتها ووسطوة تلك الفصائل تشكّل عامل ضغط عال وقهر للسكان المحليين، تمنع من إبداء الرأي والإعلان عن المواقف، ما يجعل من حالة التعايش مع الواقع القائم أمراً يكاد يكون طبيعياً.

II. البنية التنظيمية والعسكرية

تمتاز حركة "نور الدين زنكي"، بحسب المراقبين، ببنية تنظيمية قوية ومستقلة، تتألّف من قائد عام ومجلس شوري، وقائد عسكري ومسؤول أمني وشرطة ورئيس مكتب سياسي وشرعي خاص، وقادة ميدانيين، ومكاتب وأجهزة أخرى عسكرية ومدنية، كما هو حال الفصائل المسلحة الأخرى الأساسية. وتقدّم الحركة نفسها بوصفها فصيلاً قوياً، له قراره المستقل، وأنّها قد "تحوّلت نتيجة التنظيم والخبرة والاستقلالية إلى رقم صعب في الحسابات الداخلية"⁶.

وفي نظر حركة "نور الدين زنكي"، إنّ "الفصائل تملك تركيبات تنظيمية بدائية، بدون تفضيل أيّ طرف على الآخر، وهي ذات طابع شعبي مرن جداً؛ بسبب ظروف تشكيلها والمصاعب التي رافقت تطوّرهما". وترى أنّ "أكثر تلك الفصائل تنظيمياً هي التي حاربت الفساد الداخلي والفضوضيّة، وصنعت هراً تنظيمياً لها، بمهارة محدّدة، والأمر تمّ بدون مساعدة، وبشكل إرادي بسيط، و "الزنكي" أحد هذه الفصائل التي خلت من الفساد وخصّصت كوادرها بأعمال محدّدة، لذلك استطاع الصمود في وجه المحن المالية والعسكرية والسياسية، ولم يتعرّض لانقسامات أو تفكّك، بل بقي محافظاً على توازنه العسكري والسياسي نوعاً ما"⁷.

بلغ عدد مقاتلي حركة "نور الدين زنكي"، في أعلى التقديرات، نحو 8000 مقاتل⁸، كانوا يتركّزون، بداية، بالرّيف الغربي لمدينة حلب، ولهم حاضنة شعبية واسعة هناك. كما أنّ لهم مكتباً عسكرياً، يعتبر عصب الحركة في حي السّكري، الذي يعدّ عاصمة هذه الحركة الفعلية، في القسم الشرقي من مدينة حلب، الخاضع لسيطرة الفصائل السلفية المسلحة، وفيه تتركّز بنية الحركة عبر تسعة مكاتب⁹، كما سيأتي.

⁵ - معهد دراسات الحرب (ISW)، فصائل المعارضة السورية المسلحة 3 حلب، 13 شباط 2016.

⁶ - سوريّتنا، هل تغيرت حركة نور الدين زنكي؟ وما هي أسباب التطورات التي تجري بينها وبين الفصائل الأخرى؟!، (مقابلة أجراها موقع سوريّتنا مع عضو المكتب السياسي لحركة نور الدين زنكي بسام مصطفى حجي)، 28 تشرين الثاني 2016.

⁷ - المرجع السابق نفسه.

⁸ - بلدي نيوز، 8 آلاف مقاتل ينشقون عن "هيئة تحرير الشام"، الخميس 20 تموز 2017.

⁹ - صفوان داؤد، حركة نور الدين زنكي؛ الاعتدال المُقنع، المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الإرهاب والاستخبارات، مرجع سابق.

إضافة إلى الحالة التنظيمية التي أنشأتها الحركة، قسّمت نشاطها العام إلى شقين: شقّ عسكري ميداني؛ من أجل مواجهة نظام الرئيس السوري بشار الأسد وإضعافه، تمهيداً لإسقاطه، وشقّ مدني، يتعلّق بالشؤون المدنية للسكان المقيمين ضمن الإدارة المحلية للمدن والبلدات الواقعة تحت سيطرة الحركة المباشرة؛ من أجل تأمين المتطلّبات والحاجات المعيشية، وتوفير المقوّمات الحياتية، بغية كسب تأييد الحاضنة الاجتماعية، واستمرار دعمها.

فعلى المستوى العسكري، خاضت حركة "نور الدين زنكي" معارك كثيرة ضدّ الجيش السوري، في أنحاء مختلفة من مدن وأرياف حلب في سوريا، وهي الفصل الأوّل المسلّح الذي دخل حيّ صلاح الدين بعد معارك شرسة ضدّ القوّات السورية في تموز 2012.

وعمدت الحركة إلى إيجاد بنية عسكرية وأمنية مستقلة في سياق المواجهة مع النظام، والقيام بمهمة إدارة المجتمع المحلي، بديلاً عن مؤسسات الدولة الرسمية، وذلك عبر إنشاء مكاتب خاصة، تتولّى المهام العسكرية والأمنية، وهي، حسب موقع حركة الزنكي الإلكتروني الرسمي:

1 - المكتب العسكري: تتبع له "56" كتيبة منتشرة في مدينة حلب وريفها، بالإضافة إلى 5 سرايا "م د- م ط- مدفعية- دبابات- هندسة عسكرية"، وتتبع هذه الكتائب لغرفة عمليات مشتركة، يرأسها ضابط، تقوم بإدارة العمل العسكري وتنظيم الجبهات التي تعمل عليها الكتائب.

2 - المكتب الأمني والشرطة: يضمّ كتيبتين، واحدة بمدينة حلب والأخرى بالريف الحلي، بالإضافة إلى 10 مخافر شرطة، و 15 حاجزاً. وتتبع هذه (الكتائب الأمنية - الحواجز - المخافر - النقاط الأمنية) إلى إدارة واحدة، وتقوم بمهمة ضبط الأمن والاستقرار في المناطق التابعة لنفوذ الحركة، وحماية المنشآت والممتلكات العامة والخاصة...

3 - مكتب التسليح: يتولّى ضبط أمور السلاح، وتسجيلها في قيود، وتوزيع الذخيرة في الجبهات.

4 - مكتب الإدارة والتنظيم: يقوم بضبط الأعداد، وتقييد ذاتية عناصر الحركة، وترشيدها، وتوزيعها حسب الاختصاصات.

5 - مكتب الإشارة والاتصالات: يقوم بعملية تأمين الاتصالات والإشارات العسكرية، وتنظيمها.

6 - مكتب الشؤون الإدارية: يتألّف من مطبخ ورحبة تصليح ومحطّة محروقات، مهمّته تأمين الطّعام والمحروقات والآليات اللازمة للحركة.

7 - المكتب المالي: يقوم بالإشراف وتوثيق الأمور المالية، وضبطها، وتوزيع الرواتب وإدارة النفقات.

8 - مكتب الإغاثة العسكرية: يقوم بتأمين الإغاثات للعناصر، وتوزيعها على أسر العناصر بشكل منتظم، والعناية بأمور المعاقين وأسرى "الشّهداء".

9 - المعسكرات: يقوم بتدريب العناصر وتأهيلهم أخلاقياً وعسكرياً.

10 - المكتب السياسي والعلاقات العامة: يتولّى رسم السياسة العامة للحركة، وإقامة العلاقات العامة في الدّاخل والخارج.

انتشرت حركة "نور الدين زنكي"، بداية، في مدينة حلب وأريافها الغربية والشمالية والجنوبية، بالإضافة إلى ريف إدلب الغربي، وعملت على عدّة جهات مع النّظام السوري وتنظيم "داعش"، وأبرزها: المنصورة، البحوث العلميّة، حي الراشدين الشمالي، جبل معارة الأرتيق، جبل شويحنة، الجزيرة، صلاح الدين، العامريّة، سيف الدّولة، الراموسة. وقامت حركة الزنكي بإنشاء أوّل غرفة عمليّات في حلب وريفها، بالاشتراك مع عدّة قوى فاعلة على الأرض، وهي: "غرفة عمليّات خان العسل"، وكانت حصيلة هذه المعارك الضارية سقوط أكثر من "450" مقاتلاً¹⁰. واهتمّت حركة الزنكي بالعمل المدني على نحو خاصّ ومنظّم، فأحدثت عدّة مكاتب للاعتناء بالأمر المدني في المناطق الخاضعة لسيطرتها، ومن أبرز هذه المكاتب: مكتب الإدارة المحليّة- المكتب الطّبي- المكتب التعليمي- المكتب الاقتصادي- المكتب الشرعي والدعوي¹¹، إضافة إلى مهمّات الأمن والقضاء... والإغاثة عبر مجالس محليّة في القرى والبلدات والأحياء. وقد أنشأت منذ تأسيسها "مكتباً اقتصادياً"، يُعنى بجلب التّمويل لها من المتبرّعين في الدّاخل والخارج، من أجل شراء السّلاح، ودفع رواتب المجنّدين، وتوفير المصالح الخدميّة لمناطقها "المحرّرة"¹².

III. تعيين قائد جديد للحركة

مرّت قيادة حركة "نور الدين زنكي" بتطوّرين بارزين من ناحية اختيار القيادة العامّة لها، فتوفيق شهاب الدين*، وهو الشخصيّة المؤسّسة للحركة في بداية تكوّنها، قد جرى إقصاؤه في نهاية شهر نيسان من العام 2015¹³، بحجّة المرض المانع له من الاستمرار بتولّي القيادة، وتسيير شؤون الحركة، واستبدل بشخصيّة غير بارزة، هو الشيخ علي السعيدو. وكان لافتاً، حينها، خبر إعفاء شهاب الدين من منصبه، "وعده الناشطون على مواقع التّواصل الاجتماعي بمثابة "انقلاب أبيض في صفوفها"¹⁴.

¹⁰ - حركة نور الدين زنكي، الموقع الرسمي.

¹¹ - قسم الرصد والمتابعة - المؤسسة السورية للدراسات وأبحاث الرأى العام، توزع فصائل الثورة والمعارضة العسكرية على أرض سورية. الجبهة الشامية (2)، 16 حزيران 2016.

¹² - الجزيرة، كتائب نور الدين زنكي، 24 تموز 2016.

¹³ هو أحد أبناء منطقة الشيخ سليمان المجاورة لـ"قبتان الجبل" (ريف حلب الغربي). تولّد توفيق شهاب الدين في العام 1973، وهو أمّي، كان يعمل حتماً مختصاً بلحم الجمل، في بدايات التحرك المسلّح في ريف حلب، باع جميع أملاكه بمبلغ 8 ملايين ليرة (حوالي 150 ألف دولار في حينها)، وقدمها لرياض الأسعد لـ"دعم الجيش الحر". عهد إليه الأسعد حينها بـ"قيادة الجيش الحر" في منطقته، ليشكّل مجموعة تمكّنت في وقت قصير من السيطرة على الشيخ سلمان. وشاركت في دخول حلب، وتمرّزت في حي "صلاح الدين" تحت راية "لواء التوحيد" (المحسوب على الإخوان المسلمين). أصيب "الشيخ توفيق" (وهو اللقب الذي اشتهر به بعد تحوله إلى قائد) بجروح بليغة إثر محاولة اغتياله، لكنّه ما لبث أن عاد، بعد تمّثله للشفاء، إلى ممارسة مهامه "القيادية". ساهم في تشكيل "جيش المجاهدين" الذي كان رأس حربة في المعارك ضد تنظيم "داعش" في ريف حلب. قام برحلة سرّية إلى قطر، وأشيع بين مقاتليه أنّه "ذهب لتأدية العمرة". بعد تلك الزيارة بات التشكيل الذي يقوده ذراعاً قطريّة بامتياز، من دون أن يؤثّر ذلك على علاقاته مع الأتراك. فور عودته، أعلن انفصاله عن "المجاهدين"، وعدّل اسم مجموعته من "كتائب" إلى "حركة نور الدين زنكي" وتحالف مع "حركة حزم" البائدة. وقبل بدء "حرب التحالف ضدّ داعش" كان الشيخ توفيق أحد قادة المجموعات الذين التقاهم وزير الخارجية الأميركي جون كيري في تركيا، بوصفهم "قادة مجموعات معتدلة".

¹⁴ - بيان مجلس شوري حركة "نور الدين زنكي" الرسمي الصادر بتاريخ 30 نيسان 2015.

¹⁵ - عنب بلدي أونلاين، "نور الدين زنكي" تعفي قائدها لأسباب صحيّة، 30 نيسان 2015.

وبدا أنّ هذه الخطوة تأتي في سياق إعادة تموضع الحركة إقليمياً، وتحويل الاتجاه إلى مسار مختلف، في سياق التنافس الخارجي على امتلاك أوراق القوة في لعبة الصراع السوري الداخلي التي توفرها الفصائل المسلحة، وتوفير مناخات سوق تنافسي بينها؛ إذ إنّ هذا "التغيير الذي يبدو مفاجئاً في ظاهره، يصبّ في حقيقة الأمر في خانة إعادة ترتيب أوراق المجموعات المسلحة في الشمال، بما يتوافق والبوصلة السعودية التي عادت، حينها، إلى رأس الهرم "السعودي . القطري . التركي". وهو ما لم يكن يتوافر لشهاب الدين الذي عُرف منذ ظهوره على مسرح الحدث بقربه من الأتراك، ثم القطريين، ولاحقاً الأميركيين ... الإطاحة بشهاب الدين تبدو أشبه بانقلاب عليه، وتضع "الزنكيين" أمام احتمالين: استكمال تحوّل البوصلة على طريقة "حركة أحرار الشام الإسلامية" (ولكن بطريقة معاكسة؛ إذ أسفر اغتيال قادة الصفّ الأوّل في الأحرار عن تحويلها إلى الحزب التركي بالكامل، بعدما راوحت بينه وبين السعودي سابقاً)، أو التفكك والتلاشي على طريقة "لواء التوحيد"، ما يجعل من "جبهة النصرة" رابحاً محتملاً؛ إذ عُرفت عنها البراعة في اقتناص الفرص في الشمال السوري، وتفكك مجموعة بوزن "نور الدين زنكي" يُمثّل فرصة سانحة للملء الفراغ في ريف حلب الغربي (مركز ثقلها). وهي منطقة حيوية بالنسبة إلى "النصرة"؛ إذ يضمن وصل مناطق نفوذها في ريف إدلب الشرقي بريف حلب الغربي (وهذا أحد الأسباب الجوهرية للمعارك التي شنتها سابقاً ضدّ حركة حزم)¹⁵.

وعلى أيّ حال، فإنّ علي السعيدو لم يبق في سدة قيادة حركة "نور الدين زنكي" سوى أشهر قليلة، فما لبث مجلس شورى الحركة أن اجتمع في 17 أيلول 2015 واتخذ قراراً بإعفائه من منصبه، وتعيين النقيب محمد سعيد مصري* مكانه، قبل أن يعود هذا المجلس بعد أشهر قليلة ويعفي الأخير، أيضاً، من هذا المنصب، ويعيّن يوم السبت 16 نيسان 2016 مؤسسه وقائده الأوّل الشيخ توفيق شهاب الدين، قائداً عاماً لها مجدداً¹⁶.

وكشفت إعادة شهاب الدين إلى منصب القائد العام لحركة "نور الدين زنكي" عدم صحّة حيثيات قرار إعفائه في المرّة السابقة، بأنّها تعود لأسباب صحيّة، كما ورد في بيان الحركة الرسمي حول قرار الإعفاء، وبدا من السرعة في تغيير القادة والعودة إلى شهاب الدين، على أنّ قوّة حضور مؤسّسها في أوساطها وفي حاضنتها الشعبيّة، لا سيما بالنظر إلى حجم حضور العناصر التركمانيّة التي ضمّها شهاب الدين إلى صفوف الحركة، عامل أساس في ذلك، خشية من اهتزاز بناء الحركة الداخلي وتصدّعه، وربما لأسباب خارجيّة، تتعلّق بحضور الدّور التركي وتأثيره القوي في الحركة، أو إخفاق الطرف السعودي في توفير الدعم المادي واللوجستي للحركة، بقدر توفيره من الداعم التركي، أو ربما تجاوزت الضغوط والمتطلّبات التي تصدر من الجانب السعودي الحدود المتوقّعة لدى الحركة، خلافاً لما هي عليه من الجانب التركي، الذي يبقى أقلّ كلفة وأيسر .

¹⁵ - صهيب عنجبري، انقلاب "الزنكيين": الشمال يواصل السير وفق "البوصلة السعودية"، الأخبار، 1 أيار 2015.
* النقيب "محمد سعيد مصري" هو ضابط شرطة من مواليد حلب 1981، خريج كلية الحقوق في جامعة حلب، وخريج المعهد العالي للإدارة بدمشق، انشق عن السلك في (21 تموز/يونيو) من العام 2012، ثم عمل قائداً لكتيبة منبج، وشغل موقع مسؤول المكتب السياسي للواء حلب المدينة. (انظر: المصدر، حركة نور الدين زنكي تعيد اختيار مؤسّسها قائداً لها، 19 نيسان 2016).

¹⁶ - بيان نشرته الحركة على حساباتها في مواقع التواصل الاجتماعي..

لكن قيادة حركة "نور الدين زنكي"، كعادتها، برزت مآل الأمور فيها بوصفها عملية داخلية، تتصل بديناميكية الحركة وحيويتها في مواجهة الأزمات الطارئة التي قد تواجهها، ورداً على المؤامرات التي تحاك ضدها، ف رئيس مكتبها السياسي الشيخ "محمد محمود السيد" اعتبر أن "النظام سعى منذ بداية الثورة، عبر الإشاعات والعملاء، إلى تشويه صورة القادة، وتشويه الجيش الحر؛ ليجعل فجوة بينه وبين الحاضنة". مشيراً إلى وقوع بعض ضعفاء العقول في ذلك، "بالترويج من حيث يدرون أو لا يدرون"، وتحدث عن تأثير القائد الحقيقي في الشعوب الإسلامية والعربية، "فعندما يظهر هذا القائد ترى الحشود تلتف حوله". وأضاف "بأن مجلس الشورى في الحركة ينظر إلى المرحلة العسكرية والسياسية التي نمر بها، وعلى أساسها يتم التطوير في الحركة وفي قياداتها وبرنامجها وخطة سيرها، وهذا أمر طبيعي ومعروف في الحركة لمن اطلع على سير عملها". وعزا إعادة اختيار "شهاب الدين إلى أنه جملة عناصر، فهو "رجل أسس"، و "ممن فجر المظاهرات" و "من سلح وحافظ على التشكيل الذي قام عليه ولم يفرط به"، وأنه "رجل يحب المؤسسات، ويعتمد على الكفاءات، ولقد قارب بين العمل السياسي والعسكري والمدني". وبالتالي، فإن "شهاب الدين له كاريذية القائد، وتواضع المجاهد"، و "أنه ما جمع المال، ولا سكن في قصر، ولا يجد العار أو يخجل عندما يقال عنه أنه راعي غنم"¹⁷.

والأمر نفسه، برره عضو المكتب السياسي لحركة نور الدين زنكي "بسام مصطفى حجي" الذي وصف الشيخ توفيق شهاب الدين بأنه "شخصية شعبية"، معتبراً أن "الحركة تجاوزت بشكل ما عقلية الفرد الواحد، فهو تقدم في بعض ظروف الحركة وتراجع في ظروف أخرى، ولم تتأثر الحركة بذلك"¹⁸.

ومما لا شك فيه أن حركة "نور الدين زنكي" لم تسلم من أزمة التنافس الداخلي والاستقطاب بين مكوناتها في إطار الصراع على النفوذ والإمساك بزمام القيادة، ما جعلها تمر بأزمة قيادة فعلية، لأسباب خارجية، ترتد مفاعيلها على بنيتها الداخلية، ويهدد بمصيرها، في ظلّ التريص من جانب قوى أخرى متحفزة للاستحواز على عناصر قوتها، البشرية والمادية واللوجستية العسكرية، وفي مقدمها جهة "النصرة" التي تعدّ المنافس والخصم اللدود الرئيسي لها في مناطق وجودها، وأن قوة التركي والقيادة المنصبة من جانبها تتمتع بأفضلية كافية على أي داعم آخر، حتى السعودي نفسه، لفرض الخيار الملائم متى وجده مناسباً.

IV. التوجه الأيديولوجي

لم تنجح حركة "نور الدين زنكي" في تقديم نفسها ضمن المجموعات أو الفصائل المسلحة المصنفة معتدلة، كما هو حال معظم الجماعات المسلحة الأخرى في سوريا، إن لم يكن جميعها، ويعود إخفاق حركة الزنكي هنا لأسباب عديدة، أهمها: المنظومة الفكرية المتطرفة التي تحملها التي تنافي الرؤى والأهداف التي تحاول إبرازها، وفشلها في الالتزام بالمنطلقات والمشاريع والبرامج والأهداف التي أعلنت عن تبنيها في سياق التعريف عن نفسها، والأعمال المشينة المؤثقة التي ارتكبتها.

ورغم أن حركة "نور الدين زنكي" لم تورد في بيان تعريفها في موقعها الرسمي، كما درجت عادة الجماعات الأخرى، ما يحدد هويتها الأيديولوجية وأهدافها السياسية، واكتفت بتحديد نشاطها والمكاتب والمؤسسات، العسكرية

¹⁷ - المصدر، حركة نور الدين زنكي تعيد اختيار مؤسسها قائداً لها، 19 نيسان 2016.

¹⁸ - سوريتنا، هل تغيرت حركة نور الدين زنكي؟ وما هي أسباب التطورات التي تجري بينها وبين الفصائل الأخرى؟!، مرجع سابق.

والمدينة، التي تتبع لها، فإنّ قادتها سعوا إلى بناء صورة نموذجية لها، تقوم على تمجيد الذات، وإضفاء صورة خيرة، وإضفاء الطابع المحلي، وإعلان أهداف "وسطية"، وربط الحركة بالأطر المصنّفة، دولياً، جماعات "معتدلة"، وتحديد الجيش السوري الحر. وفي هذا السياق، يقول قائد الحركة الشيخ توفيق شهاب الدين "نحن مسلمون وسطيون، لا نقصد الوسط بين الخير والشر، إنّما هو روح الإسلام هو عين الإسلام. لسنا نحن الوحيدين من سيحدّد مستقبل سوريا السياسي" ويضيف "هناك الكثير من الناس ساروا وكافحوا وناضلوا لإسقاط هذا النظام"¹⁹.

ويحدّد قادة حركة "نور الدين زنكي" أهداف هذه الحركة العامة بالأمور الآتية:

- إسقاط النظام.
 - تفكيك الأجهزة الأمنية.
 - إخراج الميليشيات والقوّات الأجنبية من سوريا.
 - رفض التقسيم والمحاصصة.
 - وحدة السوريين كشعب.
- ويدعو إلى الإقرار بأنّ "الشّعب السوري هو الوحيد المعنيّ بمستقبل سوريا وشكل الدّولة ودستورها وقوانينها"²⁰.

٧. ارتكابات حركة "نور الدين زنكي"

رغم محاولات حركة "نور الدين زنكي" الحثيثة تقديم نفسها بتلك الصورة النمطية الإيجابية، كسباً للتأييد الشعبي، وإرضاء للقوى الخارجية الدّاعمة، وحذراً وتهرباً من تهمة الإرهاب التي تفرض موجبات دولية على الجماعات المصنّفة هكذا، سواء لناحية إمكانية تقديم الدّعم، المالي والعسكري، للفصائل المسلحة المصنّفة "معتدلة" أم لناحية وجوب محاربة الدّول (وبخاصّة دول التحالف الدّولي) للفصائل المصنّفة "إرهابية"، فإنّ حركة الزنكي، كما أسلفنا، أخفقت في الحفاظ على تلك الصورة المعلنة، وقدمت صورة نمطية مغايرة تماماً، كما سيأتي، من خلال الارتكابات والأعمال الحربية المنافية للقوانين الدّولية ومقرّرات حقوق الإنسان، والتي تصبّ في خانة الأعمال الإرهابية والجرائم ضدّ الإنسانية التي تمنع الدّول من تقديم أيّ نوع من أنواع المساعدات، وبخاصّة العسكرية منها، ويجعلها ضمن قائمة الجماعات والفصائل التي تعدّ هدفاً حربياً للقوى الدّولية المحاربة للإرهاب، ومنها التحالف الدّولي الذي تقوده الولايات المتّحدة الأميركيّة.

ومن أبرز الأدلة تلك الصادرة عن منظمة العفو الدّولية، ومن أبرزها التقريران الصادران في الفترة الواقعة بين أيار وتموز في العام 2016، تحدّث الأول منهما عن جمع المنظمة أدلة قويّة على انتهاكات خطيرة ارتكبتها الجماعات المسلحة في المناطق المحيطة بحي الشيخ مقصود، بمدينة حلب، الذي يقع في محيط جهات ثلاث الشمالية والشرقية والغربية خاضعة للجماعات المعارضة المسلّحة، ويعيش في الحي 30,000 مدني، وتقطّنه أغلبية كردية.

¹⁹ - الجزيرة، لا مكان لـ"تنظيم الدولة" بسوريا، مرجع سابق.

²⁰ - سوريّتنا، هل تغيرت حركة نور الدين الزنكي؟ وما هي أسباب التطورات التي تجري بينها وبين الفصائل الأخرى؟!، مرجع سابق.

وتعليقاً على الهجمات، قالت ماغدالينا مغربي، القائمة بأعمال نائب مدير برنامج الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، إن "دكّ الشيخ مقصود، بلا هوادة، قد دمّر حياة المدنيين في المنطقة"²¹.

ووفّر تقرير منظّمة العفو الدوليّة الثاني الصادر بتاريخ 5 تموز 2016 المعنون "لقد كان التعذيب عقاباً لي: حالات الاختطاف والتعذيب والقتل بإجراءات موجزة تحت حكم الجماعات المسلحة في حلب وإدلب بسوريا" إطلالة نادرة على واقع الحياة في المناطق الواقعة تحت سيطرة جماعات المعارضة المسلحة، ويسلّط التقرير الضوء على المؤسسات الإدارية وشبه القضائية التي أسّستها الجماعات المسلحة لحكم تلك المناطق. ويذكر التقرير "أنّ الجماعات المسلحة، التي تنشط في حلب وإدلب والمناطق المجاورة لهما في شمال سوريا، قد نفّذت موجة مروّعة من عمليّات الاختطاف والتعذيب والقتل بإجراءات موجزة".

وعلق مدير برنامج الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بمنظّمة العفو الدوليّة، فيليب لوثر، بأنّ "للجماعات المسلحة في حلب وإدلب اليوم مطلق الحرية في ارتكاب جرائم حرب وغير ذلك من خروقات القانون الإنساني الدولي، مع إفلاتها من العقاب. في تطوّر يبعث على الصدمة". وخاطب لوثر الدّول الدّاعمة للجماعات السوريّة المعارضة بممارسة الضّغوط على الجماعات المسلحة التي لها نفوذ عليها للكفّ عن تلك الممارسات المخالفة للقوانين الدوليّة بحقّ المدنيين، والتوقّف عن تقديم الدعم العسكري لتلك الجماعات، وطالب "الدّول الأعضاء في الفريق الدولي لدعم سوريا، بما في ذلك الولايات المتّحدة وقطر وتركيا والسعودية التي تشارك في المفاوضات المتعلّقة بسوريا، أن تمارس الضّغط على الجماعات المسلحة كي تتوقّف عن ارتكاب هذه الانتهاكات والامتنال لأحكام قوانين الحرب. كما يجب عليها أن تتوقّف عن نقل أية أسلحة وعدم توصيل أشكال الدّعم الأخرى للجماعات المتورّطة في ارتكاب جرائم حرب وغير ذلك من الانتهاكات الجسيمة".

ويبرز التقرير المذكور الانتهاكات التي ارتكبتها خمس جماعات مسلحة، تبسط سيطرتها على مناطق من محافظتي حلب وإدلب منذ 2012، وتشمل قائمة هذه الجماعات حركة "نور الدين زنكي" و"الجهة الشاميّة" و"الفرقة 16" التي انضمت إلى ائتلاف (معركة) فتح حلب في 2015. كما تضمّ أيضاً جهة "النصرة" وحركة "أحرار الشام الإسلامية" في إدلب، وهما اللتان أعلنتا عن انضمامهما لائتلاف "جيش الفتح" في 2015 أيضاً²².

VI. جريمة ذبح الفتى الفلسطيني

ارتكبت حركة "نور الدين زنكي" العديد من الأعمال المنافية للقوانين والمواثيق الدوليّة والإنسانيّة في سوريا، ومنها ما سجّل في تقارير رسميّة صادرة عن منظّمت دوليّة، أبرزها التقارير الصادرة عن منظّمة العفو الدوليّة، والتي سجّلت على الزنكي العديد من الانتهاكات الصّارخة للقانون الإنساني والدولي، وتتعلّق بعمليّات قتل، وذبح، وتعذيب، واختطاف وحجز مواطنين، من بينهم أطفال، منذ العام 2012، وابتزاز وفرض خوآت، وتهديد وإخافة المدنيين وإذلالهم، ومنعهم من الخروج من الأماكن المعرّضة للخطر، وفي حالات كثيرة منها يحصل على أساس عرقي وديني، واستعمال موادّ سامّة، وتحضير الأطفال والنساء كائناتٍ للقيام بعمليّات إرهابيّة²³.

²¹ - منظّمة العفو الدوليّة، سوريا: جماعات المعارضة المسلحة ترتكب جرائم حرب في مدينة حلب، 13 أيار 2016.

²² - منظّمة العفو الدوليّة، سوريا: حالات الاختطاف والتعذيب والقتل بإجراءات موجزة على أيدي الجماعات المسلحة، 5 تموز 2016.

²³ - عدنان علي، "الائتلاف" يدين ذبح طفل فلسطيني... وواشنطن تنوّد حركة "الزنكي"، العربي، 20 تموز 2016.

لكنّ الانتهاك الأبرز الذي لقي إدانة وسخط واسعة، محلياً وإقليمياً ومن المجتمع والمنظمات الدوليّة، وسبّب إخراجاً للدّول الدّاعمة للزّكي، هو حادثة ذبح الطفل الفلسطيني عبدالله عيسى، من سكّان حي باب السباع في مدينة حمص، على يد أفراد من الحركة، كما مرّ أنفاً، بعد اختطافه من أحد المستوصفات في مخيم حندرات، رغم أنّ عمره أقل من 12 عاماً. وأنّه كان مريضاً، و يضع "مصلاً" طبيّاً على يديه، بحسب الصور التي التقطها المسلحون أنفسهم.

وقد حاولت حركة الزّكي التملّص من الجريمة، تارة عبر نفي علاقتها بها، وأخرى عبر الحديث عن أنّه مقاتل في جيش القدس التابع للجيش السوري وأنّها أسرته خلال المعارك على جبهة حندرات، شمال حلب، وثالثة عبر إدانتها للجريمة والادّعاء بأنّ "ما جرى خطأ فردي، لا يمثل السّياسة العامّة للحركة، والتي تلتزم بحقوق الإنسان وبالمعاهدات والاتّفاقات الدوليّة الخاصّة بذلك، وما نصّت عليه الشّرائع والأديان السماويّة"، مشيرة إلى أنّه "جرى إحصار وتوقيف جميع الأشخاص الذين قاموا بهذا الانتهاك، وتسليمهم إلى لجنة قضائيّة للتحقيق معهم"²⁴. إلّا أنّ المشاهد المصوّرة لمراحل اعتقال الطفل، وما جرى من حديث معه من قبل مسلحي الزّكي، وانتهاء بعملية الذبح، ومكانة الأشخاص المشاركين في الجريمة، وعدم محاسبتهم الجديّة، كانت قرائن، لا تقبل الشكّ، وبراهين كافية لإدانة الزّكي، وتحميلها المسؤوليّة التامّة عن الجريمة البشعة. "ويظهر أحد مقاطع الفيديو، نشر على مواقع التّواصل الاجتماعي، مجموعة من المقاتلين، ينتمون إلى حركة "نور الدين زكي"، يتحدّثون إلى الكاميرا، ويوضّحون أنّهم قاموا بأسر طفل، ينتمي إلى "لواء القدس"، ويظهر الطفل في الفيديو مصاباً في قدمه وبطنه، والدّماء تغطّي يديه، في حين يقوم المقاتلون بضربه على وجهه، قبل أن يعمدوا إلى ذبحه. وبحسب الفيديو، يظهر أحد المقاتلين، وهو يقوم بوضع الطفل على مؤخّرة السيارة، ويجزّ عنقه، ثم يرفع رأسه في الهواء، وتبدأ صيحات التّكبير والتّهليل من قبل زملائه²⁵. وإلى جانبه مقاتل آخر يصرخ قائلاً: "لن نترك أحداً في حندرات"، وهي منطقة في شمال مدينة حلب، تشهد معارك بين الفصائل المقاتلة والاسلاميّة من جهة وقوّات النّظام من جهة أخرى²⁶. ووفقاً للمتابعين، فإنّ "الذي أعطى الأمر لتنفيذ هذه الجريمة البشعة هو مسؤول في قطاع حلب عن الحركة، وهو المدعو "عمر سلخو"، الذي طلب في الفيديو من مسلّحي الحركة التقاط صورة "سيلفي" له مع الطفل المصاب قبيل ذبحه"²⁷.

وكفى بتقرير منظمّة العفو الدوليّة دلالة على الإدانة، إذ ندّدت المنظمّة بما تضمّنه تسجيل عمليّة ذبح الفتى المصورة، ووصفت "التّسجيل بأنّه أحدث دليل مروّع على ما تقترفه بعض تلك الجماعات من الانتهاكات الخطيرة لحقوق إنسان، دون أن تنال أيّ عقاب". وقال فيليب لوثر، مدير قسم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بمنظمّة العفو الدوليّة "إنّ هذا التسجيل الذي يصوّر قطع رأس فتى، يوحي بأنّ بعض أفراد الجماعات المسلحة قد هبطوا إلى الدّرك الأسفل من الانحطاط والتجرّد الأخلاقي؛ وهو مثال آخر بشع لقتل الأسرى بلا محاكمة، الذي يُعدّ بمثابة جريمة حرب"، وأضاف بأنّ هذه "الواقعة المروّعة تشير إلى نمط من الانتهاكات التي ترتكبها الجماعات المسلحة في

²⁴ - المرجع السابق.

²⁵ - الخليج أونلاين، "نور الدين زكي" تدين ذبح عناصرها طفلاً بحلب وتحقق بالأمر، 20 تموز 2016.

²⁶ - عدنان علي، "الاتّلاف" يدين ذبح طفل فلسطيني.. وواشنطن تتوعد حركة "الزّكي"، المرجع السابق.

²⁷ - السهم نيوز، وحشية حركة نور الدين الزّكي تثير الغضب الكثير...، مرجع سابق.

شمالي سوريا، حيث أطلقت هذه الجماعات لنفسها العنان في اقتراح أعمال القتل الفوري، والاختطاف، والتعذيب، وهي بمأمن من أي حساب أو عقاب²⁸.

ووصفت الحكومة السورية جريمة ذبح الطفل بـ"المقززة"، وطالبت، عبر رسالتين وجهتهما إلى كل من الأمين العام للأمم المتحدة ومجلس الأمن بإدانة الجريمة اللا إنسانية واللا أخلاقية التي ارتكبتها حركة "نور الدين الزنكي" الإرهابية. وحذرت من أن التقاعس عن اتخاذ الإجراءات الرادعة بحقهم وبحق مؤيديهم وداعميهم يوجه رسالة واضحة صريحة لهؤلاء الإرهابيين للاستمرار في إجرامهم والتماادي به. كما طالبت مجلس الأمن بالاضطلاع بمسؤولياته في حفظ السلم والأمن الدوليين، عبر اتخاذ الإجراءات العقابية بحق الدول والأنظمة الداعمة والممولة للإرهاب، ومنعها من الاستمرار في دعم الإرهاب والعبث بالأمن والسلم الدوليين، والزامها بالتنفيذ التام لأحكام قرارات مجلس الأمن ذات الصلة 2170-2014 و 2178-2014 و 2199-2015 و 2253-2015، معربة عن أملها بإصدار هذه الرسالة كوثيقة رسمية من وثائق مجلس الأمن²⁹.

وتعبيراً عن الانطباع الذي تركته الحادثة في وجدان بعض المراقبين، يقول مدير المرصد السوري لحقوق الإنسان في سوريا رامي عبد الرحمن إنّ الفتي "قد جرى توقيفه في منطقة حندرات، إلا أنّ عملية الذبح حصلت في حي المشهد في الجهة الشرقية الواقعة تحت سيطرة الفصائل المعارضة في مدينة حلب" ... واصفاً عملية الذبح بأنّها "إحدى أسوأ عمليات الإعدام التي شاهدها، منذ بدء الثورة في سورية قبل خمس سنوات"³⁰.

إنّ هذه الحادثة المنافية للقوانين الدولية والأعراف الإنسانية والأخلاقية السامية هي بمثابة "تكرار لمشهد معظم مجموعات ما يسمى بـ"الجيش الحر"، فحادثة "أبو سقار" الذي شقّ صدر الجندي السوري وأكل قلبه، كان ينتمي لما يعرف بـ"كتائب الفاروق" والتي هي ضمن ما يسمى بـ"الجيش الحر"، وحوادث كثيرة بدأت بالظهور للعلن، منذ ذبح أول جندي سوري على يد حركة "أحرار الشام"، لتشكل جزءاً من إدارة التوحش التي درّبت عليها تلك المجموعات"³¹.

VII. تصنيف حركة "نور الدين زنكي"

رغم كلّ الأدلة والمؤشرات التي لا تقبل الجدل والتي تدحض صفة "الاعتدال" عن حركة "نور الدين زنكي"، تصنّف الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي هذه الحركة ضمن الجماعات "المعتدلة"؛ بذريعة أنّها جزء من "الجيش السوري الحر" العاملة على إسقاط النظام السوري بقيادة الرئيس الحالي بشار الأسد، وتقاتل تنظيم داعش، وتقدّم لها الدعم، المالي والعسكري والسياسي، الواسع في إطار ما يقدمه التحالف الدولي الذي تقوده أميركا، وتزوّدّها بالأسلحة والذخائر، بما فيها "الصواريخ المضادة للدروع" تاو³²، بخلاف روسيا والمحور الداعم للنظام في سوريا، الذي يتعامل مع حركة الزنكي بوصفها جماعة مسلحة إرهابية، شأنها شأن جبهة "النصرة" وتنظيم "داعش"،

²⁸ - منظمة العفو الدولية، سوريا: التسجيل المصور لقطع رأس فتى دليل جديد على انتهاكات الجماعات المسلحة، 20 تموز 2016.

²⁹ - عين على الوطن، سورية تدين جريمة "الزنكي" محذرة من الصمت الدولي عن جرائم "جماعات المعارضة المعتدلة"، وكالات، 21 تموز 2016.

³⁰ - عدنان علي، "الاتلاف" يدين ذبح طفل فلسطيني.. وواشنطن تتوعد حركة "الزنكي"، المرجع السابق.

³¹ - الوفاق أون لاين، "معتدلو" واشنطن في سوريا وحوش تكفيرية كاسرة.. "الزنكي" نموذجاً، 24 تموز 2016.

³² - السهم نيوز، وحشية حركة نور الدين الزنكي تثير الغضب الكثير...، 24 تموز 2016.

انسجاماً مع توجهات منظمة العفو الدولية المتقدمة، التي قدّمت أدلة كافية لإدانة الحركة في انتهاك القانون الإنساني الدولي وارتكاب جرائم حرب. إضافة إلى ما سبق ذكره، أبرزها:

- تحالفها الوثيق مع جماعات مسلحة مصنّفة إرهابية، في مقدمها "هيئة تحرير الشام"، وأبرز مكوناتها "جبهة النصرة".

- تكرار استهداف وقصف السكان والأماكن السكنية المدنية في الجزء الغربي من حلب، وإيقاع العديد منهم قتلى وجرحى.

- العنصرية التي تمارسها تجاه المواطنين الأكراد في المناطق التي يعيشون فيها، وتخضع لسيطرة الحركة.

- اختطاف المطران بولس يازجي مطران حلب للروم الأرثوذكس، والمطران يوحنا إبراهيم مطران حلب للسريان الأرثوذكس، اللذين كانا "في طريقهما للمفاوضة على الإفراج عن كاهنين مخطوفين من حلب، حين اعترضت سيارتهما مجموعة مسلحة في بلدة المنصورة بريف حلب الغربي في الطريق الموصل إلى أنطاكية، التي تخضع للمسلحين من كتيبة "نور الدين زنكي"، وتم قتل سائق المطران إبراهيم، الشّمس فتح الله روبين كبود، ورمي مرافق المطران يازجي في الطريق، واقتادتهما إلى جبهة مجهولة"³³. وما زال مصيرهما مجهولاً حتى الآن.

- اتّهامها باستخدام موادّ محظورة، إذ صرّح رئيس مركز المصالحة الروسي في قاعدة حميميم في سوريا سيرغي تشفاركوف، أنّ موادّ سامة استعملت في حلب يوم 2 آب/ أغسطس 2016 على الأحياء السكنية القريبة في منطقة صلاح الدين بحلب الشرقية، وسمّيت حركة "نور الدين زنكي" بالاسم في استخدامها، وقد دعت وزارة الخارجية الروسية منظمة حظر الأسلحة الكيميائية إلى التحقيق في الأمر، فيما قالت مسؤولية العلاقات الخارجية في الاتحاد الأوروبي فيديريكا موغيريني "إنّ الحديث عن هجمات محتملة بالسلح الكيمائي تثير قلقاً جدياً"³⁴.

ويتبيّن الموقف الأميركي الداعم لحركة الزنكي من خلال تعليق وزارة الخارجية الأميركية حول عملية الذبح المزعومة التي ارتكبتها عناصر الزنكي بحقّ الطفل الفلسطيني عبد الله عيسى، بعد موجة الاستنكار الدولية والضيّة الإعلامية الواسعة التي لقيتها الجريمة في الفضائيات العالمية، ومطالبة منظمة العفو الدولية أميركا ودول التحالف بوقف تقديم الدّعم العسكري لهذه الحركة، حيث أعلن المتحدث الرسمي بإسم الخارجية الأميركية، "مارك تونر" في 19 تموز 2017، أنّ الولايات المتحدة ستعيد النظر في دعم حركة "نور الدين زنكي" المحسوبة على المعارضة المعتدلة في سوريا، وفي حال إثبات صحّة الأنباء عن قيام مسلحين من الحركة بذبح طفل في سوريا، فستسبّب هذا بوقف تقديم شتى أنواع الدّعم لها. أضاف أنّ واشنطن تسعى للحصول على مزيد من المعلومات بشأن ما وصفه بأنّه تقرير مروع"³⁵.

لكن الموقف الأميركي المتريّث بدا بمثابة تعبير عن حالة الإحراج التي لحقت بدول التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية، أكثر منه مراجعة للموقف وانعكاساً لموقف جديد تجاه حركة الزنكي؛ ذلك أنّه لم يصدر أيّ موقف آخر، يعبر عن الموقف المستجدّ، كإدراج الحركة على لائحة الإرهاب التي تعتمد عليها الإدارة الأميركية، وتجري

³³ - انظر: القدس العربي، وصول المطرانين يازجي وإبراهيم إلى مكان آمن في ريف حلب، 24 نيسان 2013.

³⁴ - انظر: الحدث نيوز، زاخاروفا تطالب بالقصاص من مسلحي حلب، 4 آب 2016، و الميادين نت، روسيا تدعو منظمة "حظر الكيمائي" إلى التحقيق في استخدام غازات سامة في حلب، 4 آب 2016.

³⁵ - السهم نيوز، وحشية حركة نور الدين زنكي تثير الغضب الكثير... مرجع سابق.

تعديلات دورية عليها، وفقاً للمستجدات التي تراها تجاه الأشخاص والجماعات أو المنظمات، السياسية أو المسلحة، بل لم يجر أي تعديل ملموس على مستوى سياسة الدعم التي تعتمدها إزاء هذه الحركة.

أما الموقف الروسي، فإنه لا يرى فرقاً بين حركة "نور الدين زنكي" وكثير من الفصائل المصنفة معتدلة لدى قوى التحالف الدولي بقيادة أميركا وبين فصائل مصنفة إرهابية أخرى، كجبهة "النصرة" وتنظيم "داعش"، وتبرّر روسيا موقفها استناداً إلى الممارسات والأعمال المنافية للقوانين الدولية والإنسانية التي ترتكبها الجماعات المسلحة في سوريا، ومن أبرز المواقف المعبرة عن الموقف الروسي ما كتبه الناطقة باسم وزارة الخارجية الروسية ماريا زخاروفا على حسابها في موقع "فيسبوك" يوم الخميس 4 آب 2016 تعليقاً على الهجوم الكيميائي الذي شنته حركة الزنكي، حينها، في حلب "إنّ حركة "نور الدين زنكي" المدعومة من قبل واشنطن، واجهت اتهامات كثيرة بارتكاب مذابح بحق مدنيين، بينهم نساء وأطفال في أحياء حلب خارج منطقة سيطرة المعارضة المسلحة. وأضافت قائلة: "إذا بذل شركاؤنا الغربيون، وبالدرجة الأولى في واشنطن، من جديد، جهودهم القصوى من أجل التسرّع على هذه الحقائق، فستصبح كافة الأحاديث حول وقف سفك الدماء في سوريا أمراً سخيفاً"³⁶.

VIII. التمويل

رغم الصّراحة الكبيرة لقادة حركة "نور الدين زنكي" حول العلاقة مع الخارج وعدم إخفاء تلقّيها الدعم، المالي والعسكري واللوجستي وحتى التدريبي، من قوى إقليمية ودولية معروفة بمناوئتها لنظام الرئيس السوري بشار الأسد، غير أنّ حركة الزنكي لا تفصح تماماً عن حجم ونوعية الدعم الذي تتلقّاه من الجهات الداعمة لها، سواء أكانت دولاً أم مؤسسات وجمعيات، وتبقى التخمينات والتقديرية النظرية التحليلية هي الوسيلة المتاحة لذلك، بناء على المعلومات التقديرية أو الإجمالية التي يمتلكها المراقبون والمتابعون والخبراء بشؤون تلك الجماعات وبمصادر تمويلها والجهات الداعمة لها والمناحة.

فالغز المالي لحركة الزنكي شأنه شأن بقية الجماعات المسلحة السورية الأخرى، يبقى أحجية؛ نظراً للقدرات العسكرية والبشرية والإدارية الخاصة بها، التي تحتاج إلى نفقات مالية هائلة لتغطيتها، كنفقات السلاح على أنواعه (الثقيل والمتوسط والخفيف، التقليدي والمتطور)، والمراكز والمقار، وآليات ووسائل النقل، ومعسكرات ومخيمات التدريب، ورواتب القادة والعناصر، والمكاتب الإدارية، العسكرية والمدنية، والمساعدات والتّقديمات المتنوعة، وما إلى ذلك.

وتدّعي حركة "نور الدين زنكي"، مثل بقية الجماعات المسلحة الأخرى، أنّ مصدرها المالي الأساس هو الدعم الشعبي والمؤسسات والجمعيات السورية والعربية والإسلامية، مضافاً إلى الدعم الخارجي من بعض الدول المناحة. كمجموعة أصدقاء سوريا المتعاطفة مع "الثورة" السورية. أما السلاح والذخيرة، فالاعتماد الرئيسي فيهما على ما تغنمه الحركة من القواعد والمراكز والمخازن العسكرية التي تسيطر عليها، منفردة أو بالشرابة مع جماعات

³⁶ - المرجع السابق.

مسلحة أخرى، إضافة إلى الدعم الداخلي والخارجي والشراء من مصادر متاحة، وفي هذا السياق يقول قائد حركة الزنكي العام توفيق شهاب الدين: "منذ البداية كنّا نشترى ذخائر من هنا وهناك من المهربين وفيما بعد ما أتى إلى هذه الثورة لحق بنا شيء بسيط منه، والتمويل هناك جهات داخلية ومكتب اقتصادي، ويأتي من بعض الداعمين من الإخوة الأشقاء في الخارج... مناصفة حالياً، يعني من الداخل والخارج"³⁷.

وتعدّ تركيا الداعم الأساس لحركة "نور الدين زنكي"، إلى جانب الولايات المتحدة الأميركية، عبر غرفة الموك، التي تدعم فصائل "الجيش السوري الحر"، وكانت السعودية عملت، كما مرّ، على استمالة الحركة، في سياق امتلاك أوراق القوة داخل جسم حركة الزنكي وقيادتها العامة، عبر توفير الإغراء المالي والعسكري، قبل أن تعود الحركة إلى الحوض التركي مجدداً، وإعادة تعيين مؤسّسها توفيق شهاب الدين على رأس قيادتها العامة.

ولا يغيب الدور القطري الداعم الأساس للجماعات المسلحة في سوريا وهو الدور الذي لم يعد خافياً، بعد كشف رئيس وزرائها وزير الخارجية السابق حمد بن جاسم في مقابلة مع قناة "BBC" البريطانية أنّ بلاده قدّمت الدعم للجماعات الإرهابية المسلحة في سوريا، عبر تركيا بالتنسيق مع القوّات الأميركية وأطراف أخرى، هي السعودية والأردن والإمارات وتركيا، وأنّ الدوحة أمسكت بملف الأزمة السورية، بتفويض كامل من السعودية والولايات المتحدة الأميركية³⁸.

وثمة العديد من المؤسّسات والجمعيات الخارجية الداعمة لحركة "نور الدين زنكي"، التي تتبنّى الفكر السلفي، كان لها دور فاعل في تمويل العديد الجماعات السورية، وأسهمت في تقوية تلك الجماعات وتمدّدها. وفي هذا السياق، تشير مصادر استقصائية إلى أنّ الحركة تحصّل دعماً مادياً من "الهيئة الشعبية الكويتية" التي يديرها السلفي حجاج العجمي في المناطق الخاضعة للحركة في مدينة حلب، وأيضاً من منظّمة "شمس الحياة للإغاثة" الممولة أيضاً من فعاليات كويتية في ريف حلب الغربي. أثّرت هذه المساعدات، بشكل فعّال، على تمديد الحركة الأفقي، وزيادة عديدها³⁹.

IX. الانضمام والانشقاق

قد مرّ أنّ من أبرز أسباب الاتحاد بين الجماعات المسلحة ضمن إطار أو فصيل موحد أو الانشقاق الداخلي والانفصال يتّصل غالباً بأحد عوامل ثلاثة جوهرية:

الأول، يرتبط بالحاجة إلى التمويل اللازم للبقاء والاستمرار، ومن ثم استقطاب المزيد من العناصر والمقاتلين، في سبيل تحقيق المزيد من القوة الذاتية، البشرية والعسكرية؛ ففي "تجربة الجماعات المتطرّفة في سوريا، عادة ما تأتي الانسحابات من التجمّعات المقاتلة على خلفية حضور توفير تمويل أو دعم مادي. ويشير انفصال "حركة الزنكي" عن "جيش المجاهدين" وتغيير اسمها، إضافة إلى انفصال "لواء أبناء الصحابة" عن "لواء التوحيد" والتحاقه بحركة الزنكي إلى أنّ تغييراً جذرياً قد طرأ على الحركة، عبر ازدياد قوّتها المادية والعديدية⁴⁰. وتقول تقارير إعلامية، إنّ

³⁷ - الجزيرة، لا مكان لـ "تنظيم الدولة" بسوريا، مرجع سابق.

³⁸ - قناة العالم، فضائح.. أبين جاسم يكشف لائحة أسعار المنشقين السوريين، 3 تشرين الثاني 2017.

³⁹ - صفوان داؤد، حركة نور الدين الزنكي؛ الاعتدال المُقنع، المركز الأوروبي لدراسات مكافحة الارهاب والاستخبارات، مرجع سابق.

⁴⁰ - المرجع سابق نفسه.

المخابرات الأميركية، التي تعتبر الممول الأول لحركة "نور الدين الزنكي"، هي من أوعزت إلى قائدها بالانسحاب من "جيش المجاهدين"⁴¹.

والثاني، يرتبط بالخشية من افتراسها من الجماعات القويّة الأخرى، في ظلّ التنافس المربع بين الجماعات القويّة لاكتساب القوّة والتمدّد أكثر على حساب الجماعات الأخرى، وكثيراً ما كانت الجماعات الصغيرة عرضة للافتراس والتنكيل من الجماعات القويّة، أو لوازها بجماعات قويّة أخرى للتخلّص من التهديد والسّحق الذي تواجهه، وليس الاحتماء بجماعة قويّة أفضل حالاً من الهروب من جماعة مستفلسة، فكلاهما يومي بنهاية جماعة صغيرة وتلاشيها، باستثناء خلاص أفرادها ونجاتهم؛ بتحوّل انتمائهم إلى الجماعة الحامية وذوبانهم فيها.

في بداية عام 2015 اتّحدت الفصائل في "الجهة الشاميّة"⁴²؛ الأمر الذي أدّى لاحقاً إلى وقف المساعدة العسكريّة عن فصائل حلب من قبل "أصدقاء الثّورة"، ومازال قطع المساعدة قائماً إلى الآن⁴².

الثالث، يرتبط بتأثير وضغط خارجي من جانب الجهات الدّاعمة ذات التّفوذ والتأثير الفاعل على الجماعات المستهدفة بالاندماج أو الانفصال، لأسباب ماليّة أو جغرافيّة أو سياسيّة، كما في تجربة الجيش الحر أو جيش الفتح، أو هيئة تحرير الشّام أو الجهة الشّاميّة أو الجهة الإسلاميّة، وغيرها من التشكيلات الأخرى.

لقد شهدت حركة "نور الدين زنكي" العديد من حالات الاندماج والانفصال التي ترتبط بواحد أو أكثر من الأسباب الثلاثة الآتية، علماً أنّ حالات الاندماج التي شهدتها حركة "نور الدين زنكي" المتنوّعة، بعد بناء تكوينها المستقلّ، إثر انسحابها من حركة "المجاهدين"، بدأت من العام 2015، وامتدّت حتى نهاية العام 2016 تقريباً، وتمحورت أسبابها، استناداً إلى البيانات الصادرة عن حركة "نور الدين زنكي" والجماعات المندمجة معها عند كلّ حالة اندماج منها، بالآتي:

1. تسارع الأحداث المتعلّقة بمواجهة التهديد الذي يشكّله الجيش السوري، لمنعه من إحراز تقدّم أو انتصار على حساب الفصائل المعارضة المسلحة.
2. تنظيم ورصّ صفوف الفصائل المسلحة والاتّحاد بينها، ولمّ شملها.
3. ضرورة مواجهة تمدّد تنظيم "داعش" واستئصال خطره.

ومن البديهي أنّ هذه المبرّرات الثلاثة لا تعبّر عن قناعة ورغبة حقيقيّة لدى حركة الزنكي أو الجماعات المنضوية تحت لوائها، خاصّة فيما يتعلّق بالبند الثاني (تنظيم ورصّ صفوف الفصائل...)، وتخفي خلفها الدّوافع الحقيقيّة لها المذكورة سابقاً، لا سيّما وأنّ العديد من حالات الاندماج والانشقاق، على حدّ سواء، تمّت على وقع القتال بين

⁴¹ - إرم نيوز، من هي جماعة نور الدين زنكي المتهمّة بذبح طفل في حلب؟، مرجع سابق.

⁴² "الجهة الشاميّة عبارة عن اتّحاد كبرى الفصائل المسلحة في شمال سوريا في حلب، أعلن عنها في 25 كانون الأوّل 2014، بقيادة عبد العزيز سلامة المعروف بـ"أبو جمعة"، والقائد العسكري محمد بكور. وتشكّلت بداية من خمسة فصائل، هي: "حركة نور الدين زنكي" و"جيش المجاهدين" و"تجمّع استقم كما أمرت" و"الجهة الإسلاميّة في حلب" و"جبهة الأصالة والتنمية" و"حركة النور". وانضم إليها لاحقاً: "حركة أحرار الشّام"، "جيش الإسلام"، "فيلق الشّام"، "كتائب أنصار الشّام"، "صقور الشّام"، "لواء الحق"، "لواء التوحيد"، "حركة حزم".

⁴² - سوريّتنا، هل تغيرت حركة نور الدين الزنكي؟ وما هي أسباب التطوّرات التي تجري بينها وبين الفصائل الأخرى؟!، مرجع سابق.

فصائل مسلحة، بدفع خارجي أو احتماء من الجماعات التي تتحسّس الخطر أو سعياً من بعضها الآخر لتوفير دعم ماليّ لتغطية نفقات الحرب ورواتب القادة والمقاتلين. ويدلّ على ذلك حركة الانشقاق بعد الاتحاد، واتّحاد أو تحالف جماعات ذات أهداف متغايرة، إن لم نقل متباينة في المشروع والأهداف، والانقلاب بعد الإلتنام، الأمر الذي ينافي مبدأ رصّ الصّفوف ولمّ الشمل. ومن أبرز الأمثلة على ذلك، انضمام حركة الزنكي المصنّفة "معتدلة" إلى تحالف هيئة تحرير الشام المصنّفة "إرهابيّة"، رغم التوتّر بينهما، في فترة الصراع، في بدايات العام 2017، بين الهيئة وبين بعض الفصائل المصنّفة "معتدلة" أيضاً، أبرزها حركة "أحرار الشام"، وقد "أرجع حسام الأطرش، القيادي في فصيل الزنكي والمسؤول الشرعي فيها، السبب إلى "التدخل الخارجي الذي منع توحد الفصائل المعتدلة، وجعلها فريسة سهلة لقوّات النظام السوري وحلفائه. وقال الأطرش إنّ "الحركة كانت منفتحة، بدايةً، للعمل مع فصائل الجيش الحر والتوحد معها، وجرت مفاوضات عديدة للتوحد مع فصائل الجيش الحرّ في حلب وإدلب، مثل "صقور الجبل" و"الفرقة 13" و"الشمالية" وغيرها، لكنّ الجواب الدائم كان هو عدم قدرتهم، بسبب رفض غرفة الموم* والدّول الدّاعمة لهم"، وكشف الأطرش في حديثه عن محاولات عديدة واجتماعات جرت مع قادة عسكريين بارزين من فصائل حلب، مثل "جيش المجاهدين" و"فيلق الشام" و"جيش الإسلام" للاندماج، لكن جميعها انتهت إلى الفشل، بسبب عدم وجود رغبة حقيقية من هذه الفصائل للعمل، ولوجود ضغط خارجي، يمنع بعضها من الاندماج". وفي هذا السياق، يرى الضابط العسكري المنشق عن قوّات النظام حسن أسبرو أنّ "انضمام الحركة في تحالف مع الكتائب الإسلاميّة لم يكن مفاجئاً، في ظلّ تخليّ المجتمع الدولي عن دعم المعارضة المعتدلة بالسّلاح". ويضيف أسبرو "بعد سيطرة النظام على مدينة حلب، شعر مقاتلو المعارضة بخيبة الأمل، بعد اعتقادهم بأنّ المجتمع الدولي لن يسمح لأحد الأطراف بالانتصار على الآخر، وبدأوا يبحثون بأيّ وسيلة عن تحالف قويّ، يجمعهم، ولأنّ شروط الدّاعمين تمنع بعضهم من ذلك، لم يجد الزنكي وغيره غير الفصائل ذات التوجّه الإسلامي للتّحالف معهم بأيّ ثمن، لا سيما أنّ هذه الفصائل باتت حالياً الأقوى على الأرض من سواها"⁴³.

وعلى أيّ حال، فإنّ من أبرز حالات الاندماج التي عرفتها حركة الزنكي:

- إعلان كلّ من حركة "نور الدين زنكي" وحركة "الظّاهر بيبرس"، ولواء "حلب المدينة"، يوم الثلاثاء 15 أيلول 2015، التوحد الكامل تحت مسمّى حركة "نور الدين زنكي"⁴⁴.
- انضمام لواء "أحفاد حمزة" العامل في حلب وريفها، يوم السبت 5 كانون الأوّل 2015، إلى الحركة⁴⁵.
- انضمام تجمّع "أهل السنّة" العامل في بلدة تل عاده، يوم الاثنين 21 آذار 2016، إلى الحركة⁴⁶.
- انضمام كتائب المثني العاملة في بلدة الدانا في ريف حلب الغربي، يوم الاثنين 21 آذار 2016، إلى الحركة⁴⁷.

* غرفة عمليات مقرّها تركيا لتنسيق الدّعم الذي تقدّمه دول أصدقاء الشّعب السوري.

43 - حسام الجبلاوي، حركة نور الزنكي: كيف انضمت مجموعة معتدلة لجهة فتح الشام، مركز رفيق الحريري للشرق الأوسط، 17 شباط 2017.

44 - كلنا شركاء، فصائل عسكرية في حلب تعلن اندماجها باسم حركة "نور الدين زنكي"، 16 أيلول 2015.

45 - زيتون، اندماج لواء أحفاد حمزة مع حركة نور الدين زنكي، 6 كانون الأوّل 2015..

46 - سوريا على طول، حركة الزنكي تتوسع مع استمرار انضمام فصائل مقاتلة إلى صفوفها، سوريا على طول، 25 أيار 2016.

47 - المرجع السابق نفسه.

- انضمام لواء "فجر الشهباء" الذي كان تابعا لتجمع "فاستقم كما أمرت"، يوم الثلاثاء 19 نيسان 2016، إلى الحركة⁴⁸.

- انضمام كتائب "ذي النورين" العاملة في حلب وريفها، يوم الخميس 21 نيسان 2016 إلى الحركة⁴⁹.

- انضمام كتائب "أسود الشريعة"، يوم الثلاثاء 10 أيار 2016، لحركة نور الدين الزنكي في مدينة حلب وريفها. وكانت كتائب أسود الشريعة انفصلت عن كتيبة "أحفاد حمزة للمهام الخاصة"⁵⁰.

- انضمام جناح حركة "نور الدين زنكي" العسكري، يوم السبت 24 أيلول 2016، إلى غرفة عمليات "جيش الفتح" التي تضم كبرى القوى العسكرية في سوريا⁵¹.

- انضمام كتائب "سيوف الشهباء" و لواء "أحرار سوريا" العاملين في حلب، يوم الثلاثاء 15 تشرين الثاني 2016، إلى الحركة⁵².

- انضمام لواء "التوحيد" العامل في حلب، يوم السبت 15 تشرين الأول، 2016 إلى الحركة⁵³.

- انضمام "جيش الشمال"، التابع للجيش السوري الحر، يوم الأربعاء 16 تشرين الثاني 2016، إلى الحركة⁵⁴.

لكن حركة "نور الدين زنكي" شهدت، من بداية العام 2017، ما يشبه الانتكاسة على مستوى تماسك بنائها الداخلي، نظراً لما أصابها من اهتزازات بسبب حالات الانشقاق والفصل والانفصال المتعددة التي أخذت في عرفها من عدد من التشكيلات العسكرية الهامة التي سبق أن انضوت فيها، أبرزها:

- إعلان حركة "نور الدين الزنكي"، يوم الأربعاء 18 كانون الثاني 2017، فصل "لواء أحرار سوريا" العامل شمال حلب من صفوفها، لـ"عدم التزامه بالنظام الداخلي"، مع إبقاء "التنسيق والتعاون العسكري" مع "أحرار سوريا"، لما في ذلك من "مصلحة الثورة ومحاربة النظام"⁵⁵.

- إعلان "جيش الشمال" العامل في ريف حلب الشمالي، يوم الجمعة 17 كانون الثاني 2017، انفصاله عن حركة الزنكي، ووقوفه على مسافة واحدة مع جميع التشكيلات العسكرية، سواء أكانت فصائل المعارضة أم "فتح الشام"، معللاً الخطوة بـ"حقن الدماء، ومنع الاقتتال وانتقاله لريف حلب الغربي"، علماً أنّ "جيش الشمال"، أعلن في منتصف تشرين الثاني 2016، أي قبل شهرين تقريباً، فقط، انصهاره في صفوف الحركة⁵⁶.

48 - المرجع السابق نفسه.

49 - المرجع السابق نفسه.

50 - المرجع السابق نفسه.

51 - البوابة، الجناح العسكري بـ"نور الدين زنكي" ينضم لـ"جيش الفتح" في سوريا، السبت 24 أيلول 2016.

52 - بلدي نيوز، فصائلان عسكريان في حلب يعلنان انضمامهما لحركة "الزنكي"، 16 تشرين الثاني 2016.

53 - أحلام سلامات، فيديو: لواء "التوحيد" في حلب يعلن اندماجه مع حركة "نور الدين الزنكي"، سمات، 16 تشرين الأول، 2016.

54 - حسن عبيد، اندماج عسكري جديد شمال سوريا، بلدي نيوز، الخميس 17 تشرين الثاني 2016.

55 - عمر عبد الفتاح، "الزنكي" تفصل لواء من صفوفها لـ"عدم التزامه بالنظام الداخلي"، سمات، 18 كانون الثاني 2017.

56 - مدار اليوم، "جيش الشمال" يعلن انفصاله عن حركة "نور الدين الزنكي"، 27 كانون الثاني 2017.

- إعلان القطاع الشمالي لحركة "نور الدين الزنكي"، يوم السبت 29 كانون الأول 2017، انشقاقه عن الحركة، وانضمامه إلى "فيلق الشام" لتحقيق أهداف ثورة الشعب السوري الحر.؛ وذلك على خلفية الاقتتال بين الفصائل، وموقف الحركة "الصامت" ووقوفها مكتوفة الأيدي، أمام البغي الذي تعرّض له فصائل "الجيش السوري الحر"⁵⁷.

- إعلان حركة "نور الدين الزنكي"، يوم الخميس 20 تموز 2017، انفصالها عن "هيئة تحرير الشام"، على خلفية قرار مجلس شورى الهيئة بقتال "أحرار الشام"، وعدم قبولها بالمبادرة التي أطلقها مجموعة من العلماء عدم تحكيم الشريعة التي بذلت الحركة الغالي والنفيس لتحكيمها، والوقوف على الحياد في الاقتتال الدائر بين الهيئة وحركة "أحرار الشام"⁵⁸.

وهكذا، تبدو محاولات تحقيق مشروع اندماج حقيقي بين الفصائل الكبرى في سوريا مجرد آمال بعيدة عن الواقع، نظراً للتباينات الكبيرة التي تفصل بينها، سواء في الرؤى والأيديولوجيات أو في الأهداف أو المرجعيات، الإقليمية والدولية الداعمة لكل منها، والأهم من ذلك كله في الطموحات القيادية لقادة الفصائل الكبرى والخشية وانعدام الثقة المتبادل بين أطرافها، وتصنيف بعضها في لائحة "المنظمات الإرهابية"، ويدلّ على ذلك الصراعات والتهامات المتكررة والمتشعبة بين الفصائل الكبرى، وحالة الريبة والخوف المتبادل الذي تفصح عنه الفصائل بين فينة وأخرى، وفشل غالبية المشروعات الاندماجية التي تمت، وعدم جدية العديد منها وعدم فاعليتها وانسجامها. كلّ تلك العوامل مؤشرات ودلائل واقعية على عدم وجود مقومات قوية وناجزة، تفضي إلى إنتاج مشروع مماثل في المستقبل.

ومن أبرز المحاولات في هذا السبيل تلك التي جرى الحديث عنها حول مشروع اندماج لبعض الفصائل الكبرى في الشمال السوري، وعقدت اجتماعات متكررة بشأنه، "في محاولة لتشكيل كيان جديد تحت اسم "الهيئة الإسلامية السورية"، يضمّ قرابة 14 فصيلاً عاملاً على الأراضي السورية، أبرزها: حركة "أحرار الشام الإسلامية"، وجبهة "فتح الشام"، وحركة "نور الدين زكي"، و"أجناد الشام"، و"الحزب التركستاني"، و"جيش السنة". لكنّ حركة الزنكي، نعت لاحقاً هذا المشروع، لأسباب ذكرت أنّها تتعلق بذلك بـ "التخوف من التصنيف الدولي". وقال عضو المكتب السياسي لحركة الزنكي، بسام حاج مصطفى "إنّ جميع الفصائل، بما فيها "فتح الشام"، حاولت الاندماج تحت علم الثورة السورية وشعاراتها وأهدافها، إلا أنّ الأجواء لم تكن مساعدة، وطغى الخوف من التصنيف الدولي وباقي الشروط الدولية على المشروع ما أدّى لفشله". لافتاً إلى "أنّه لم يكن هناك شروط مسبقة للاندماج سوى "الصدق والجدية"، مضيفاً أنّ تنظيم "القاعدة" (في إشارة إلى جبهة "فتح الشام") ليس مشروعاً سياسياً سورياً، ونحن نختلف معها"⁵⁹.

وفي موازاة مشروع الاندماج المتقدّم، طفا إلى السطح مشروع مماثل، ويقضي باندماج فصائل أخرى تحت راية "الجيش الحر"، والذي يتبنّى علم "الثورة السورية"، ومن ضمن تلك الفصائل: "جيش الإسلام"، و"جيش

⁵⁷ - آدار برس، انشقاقات ضمن صفوف حركة "نور الدين الزنكي" التابعة للمعارضة السورية المسلحة، 29 كانون الثاني 2017.

⁵⁸ - بلدي نيوز، 8 آلاف مقاتل ينشقون عن "هيئة تحرير الشام"، مرجع سابق.

⁵⁹ - هبة دبّاس، "الزنكي": مشروع توحيد الفصائل مع "فتح الشام" فشل خوفاً من التصنيف الدولي، سمارت، 24 كانون الأول، 2016.

المجاهدين"، و"صقور الشام"، ولواء "شهداء الإسلام"، و"فيلق الشام"، و"الجهة الشامية"، و"جهة أهل الشام"، وفصائل أخرى⁶⁰.

إنّ مراجعة جديّة للكيانات المرشحة للاندماج والتوحد في التشكيلين المشار إليهما، يحمل دلالات واضحة على عدم الجدّيّة التي تحملها مشروعات التوحد؛ ففصائل بعينها تتحد بكيانات متنوّعة، يشارك فيها فصائل، لا تدخل في المشاريع الاتّحادية الأخرى، وفصائل تحمل مشروعات سلفيّة فجّة، وبعضها ذات طموحات توسّعية بارزة على حساب الفصائل الأخرى، تشارك في كيان موحد مع "الجيش السوري الحر"، وتحت رايته، مع ما يفصل بينها من هوة مفترضة، في الأيديولوجيا والرؤى والتطلّعات والأهداف. هذا بذاته كاف للحكم سلفاً على إخفاقها، وهذه المشاريع، في الواقع، لا تعبّر إلا عن مساع خارجية، دوليّة وإقليمية، لجمع الفصائل المسلحة في أطر، ولو هجينة، والتحكّم في توجيهها في سياق مواجهة النّجاحات المتواصلة التي تحرزها الدّولة السوريّة في الميدان العسكري واستعادة المبادرة والتمدد، وبالتالي، الخشية من فشل الآمال في إسقاط النّظام أو تقسيم سوريا.

X. ارتهان حركة الزنكي للخارج

لا تخفي حركة "نور الدين زنكي" ارتهان الفصائل المسلحة عامّة للخارج، الإقليمي أو الدّولي، وأنّ الدّعم المالي والعسكري الذي تتلقّاه من الدّول الدّاعمة يشكّل أداة تحكّم فعّالة في تسيير دقّة الصّراع الجاري في سوريا، ولا يتوقّف الأمر على الصّراع مع النّظام، بل يتعدّاه إلى الصّراعات الداخليّة بين الجماعات المسلحة المتناحرة، بفعل التنافر أو التنافس؛ لأسباب جوهريّة أو فارغة، لا تمسّ جوهر قضيّة النّظام ومبادئ الثورة المعلنة. وليست حركة "نور الدين زنكي" بمنأى عن هذا الواقع، ولكّنها، على العكس، تملك الجرأة في الإفصاح عن طبيعة هذا الارتباط بالخارج، والتعبير عن فعاليّته في القرار الدّاخلي المتعلّق بها أو بسواها من سائر الفصائل المعارضة الأخرى، السياسيّة والمسلحة على حدّ سواء. وأفصح تعبير عن ذلك ما ورد في محاوره قائد حركة الزنكي العام توفيق شهاب الدين في مقابلة الإعلاميّ تيسير علّوني في قناة الجزيرة التي لا يخفي فيها شهاب الدين عدم امتلاك المعارضة السوريّة لقرارها المستقل والتّام، وتحكّم الجهات الخارجيّة بإدارة اللعبة وتوجيه الجماعت المعارضة، وفقاً لأجنداتها ومصالحها الخاصّة⁶¹.

⁶⁰ - عنبلدي، خطوات اندماج "متعثرة" ومؤشرات ترجّح اجتياح إدلب بعد حلب، 25 كانون الأوّل 2016.

⁶¹ - مما ورد في محاوره علّوني شهاب الدين الآتي

(تيسير علّوني): إذن، هناك نوع من التحكّم، يعني الدّاعم يتحكّم بالفصيل الذي يدعمه؟!

(توفيق شهاب الدين): يعني ربّما لا يكون تحكّم مباشر.

(تيسير علّوني): توجيه؟

(توفيق شهاب الدين): ولكن توجيهات غير مباشرة.

(تيسير علّوني): إذن، هل نستطيع القول إنّ قرار الثورة السوريّة قرار سوري؟!

(توفيق شهاب الدين): ليس بالكامل.

(تيسير علّوني): القرار، إذن، نستطيع القول إنّ القرار غير مستقل؟

(توفيق شهاب الدين): لا نستطيع القول نحن إنّنا ليست هناك جهات دوليّة تلعب وتتحكّم في الشأن السوري، لا نستطيع أن ننكر هذا الأمر.

(نظر: الجزيرة، لا مكان لـ"تنظيم الدولة" بسوريا، مرجع سابق).

ولا يتحجّج شهاب الدين من الإفصاح عن دور الخارج في تلقي الدّعم الخارجيّ، بدءاً من المال والعتاد العسكري واللوجستي، وصولاً إلى فتح معسكرات التدريب للمقاتلين، وفي هذا السياق يقول شهاب الدين "لا مانع لدينا من إقامة معسكرات تدريب في قطر والسعودية، وهو أمر يتم الآن بالفعل في السعودية وقطر، حيث لا حرج فيه، خاصة إذا صبّ في محاربة الأسد"⁶².

وقد سبق الحديث عن علاقة ودور الأميركيين بالجماعات المسلحة، ومنها حركة الزنكي خاصة، مباشرة أو عبر بعض الدّول العربيّة المعروفة، أو من خلال غرفتي "الموك" في الأردن أو "الموم" في تركيا أو غيرها. وبرز ذلك جلياً في الموقف الأميركي من الحركة المرتبط بجريمتها في ذبح الصبي الفلسطيني عبد الله عيسى، الأتف ذكرها، وكشفها عن الوجه الإرهابي القبيح، وعبر كلام المتحدث باسم وزارة الخارجية الأميركية مارك تونر عن طبيعة تلك العلاقة، بتلويحه بإمكانية قطع المعونات الأميركية عن حركة الزنكي إذا ثبت تورّطها في عملية الذّبح⁶³، وردّ الفعل المقابل من جانب الحركة إزاء قرار أميركي من هذا النوع، الذي لا يخلو من إقرار بالمساعدة الأميركية للزنكي، رغم حديثه عن المضي حتى لوقف الأميركيون المساعدات⁶⁴.

ويبدو تأثير العامل المالي والدّعم العسكري في قدرة الجماعات المسلحة على المواجهة مع النّظام، واستقرارها وثباتها إزاء الأحداث والتطوّرات التي تواجهها بالغ الأهمية، وأنّه يشكّل الشّريان الأساسي الذي يمدّها بالحياة والقوّة. وبرز ذلك من خلال ما تركته الضائقة الماليّة التي مرّت بها حركة الزنكي، بين عامي 2015 و2016، على وجهتها وقراراتها. وعبر عنها بصراحة بعض قادتها، التي أدت إلى انخفاض قوّتها القتاليّة أمام الجيش السوري، واضطرارها لسحب عناصر حمايتها من بعض الجبهات الساخنة، وتسليمها لفصائل أخرى، وخوفها من ملاقات مصير بعض الفصائل التي تمّ تصفيتّها من جبهة "النصرة"، مثل "كتائب ثوار سوريا" و "حركة حزم" وغيرها، والانكفاء للحفاظ على الذات. فقد عمدت حركة الزنكي حينها إلى الانسحاب في من بعض الجبهات في حلب، بعد إطلاقها تهديدات سابقة بهذا الشأن، وتركها للمجموعات الأخرى، في حال استمرار تردّي وضعهم المالي وضعف التّمويل⁶⁵. وقالت الحركة، حينها، أنّها "تعاني من نقص حادّ في التّمويل والأموال والدّعم العسكري واللوجستي، وهي غير قادرة على الاستمرار في ظلّ هذه الظروف". وبرّر المتحدث باسم "الحركة" النّقيب المنشق "عبد السلام عبد الرزاق" ذلك أنّه، منذ ما يقارب ثمانية أشهر، لم يتمّ دعم الحركة، ولو بطلقة واحدة، ومنذ أكثر من سنة لم يتمّ تقديم أيّ دعم لوجستي، ولو بليرة سوريّة واحدة "... كما عزا عبد الرزاق" سبب إعادة الانتشار في حلب إلى

⁶² - زمان الوصل، "الزنكي" تطالب بأن تشمل الضربة الأميركية قوات النظام والتنظيم، 20 أيلول 2014.

⁶³ - الإعلان أوردته وكالة "سبوتنيك" الروسية، نقلاً عن المتحدث باسم وزارة الخارجية الأميركية مارك تونر الذي قال "إذا حصلنا على براهين تؤكد تورّط هذه الجماعة في ذلك (الذبح) فإنّ هذا سيحملنا على التفكير في جدوى مواصلة تقديم المساعدات لها"، (انظر: بوابة الحركات الإسلامية، نور الدين زنكي "الإرهابية.. تتمركز في حلب وتتلقي دعم "أميركي تركي"، مرجع سابق).

⁶⁴ - في حديث لـ ARA News مع عبد الله الحلبي أحد عناصر الحركة قال "إنّا، ومنذ انطلاق الثورة السوريّة، نعتمد على الله في معاركنا، وسواء أقطعت عنا المساعدات أم لا فنحن ماضون حتى تحرير سوريا من النّظام الجرم وميليشياته الشيعيّة" بحسب تعبيره (انظر: بوابة الحركات الإسلامية، نور الدين زنكي "الإرهابية.. تتمركز في حلب وتتلقي دعم "أميركي تركي"، المرجع السابق).

⁶⁵ - الحدث نيوز، "الزنكي" تهدّد بالانسحاب من حلب: "نريد مالا"، 28 كانون الثاني 2016.

الضغوط الدولية التي تتعرض لها الحركة، وحجم الدّفاع الباهظة التكاليف للنقاط الرباط التي تقوم عليها الحركة"⁶⁶.

XI. علاقة الزنكي بالفصائل الأخرى

لا يختلف موقف حركة "نور الدين زنكي" السلبي من كثرة الجماعات المسلحة، واختلاف انتماءاتها ومشاربها الفكرية، وعدم تطابق أو توافق برامجها وأهدافها، وعلاقاتها بالخارج، ودعوته المعلنة لإنشاء مّتحّد، يضمّ الفصائل كافة، وحركة الزنكي تلتقي في ذلك مع بقية الجماعات المسلحة التي تدعو لتوحّد الجماعات المسلحة في مواجهة النظام، وهي رؤية في الحقيقة، تعبّر، عند بعض الجماعات الكبرى التي تنادي بذلك بما فيها حركة الزنكي، عن جموح لإلغاء جماعات أخرى، أكثر مما تعبّر عن أطروحات وحدوية نقيّة، وهي لا تعدو كونها شعارات، لا ترقى إلى مستوى الرّؤى الجدّية، وتهدف إلى محاولة هضم الجماعات الصغيرة والكبيرة إن أمكن أكثر منها سعيّاً لصون المعارضة السورية وحذراً من التشتّت والانقسام. وفي هذا السياق، يقول قائد الزنكي العام توفيق شهاب الدين "نحن نقرّ ونؤكّد لا بدّ من التّوحيد، سواء كان على مستوى "الجهة الإسلامية" أو "أجناد الشام" أو كافة الجهات، لا بدّ من توحّد هذه الجهات حتى تكون هناك راية واحدة وجيش واحد"، لكنّه يقرّ بأنّ ما يسمع في هذا الشأن ليس سوى كلام، دون أن تكون هناك جهود حقيقية لتوحيد الفصائل في قيادة موحّدة، وهنا برأيه تكمن إشكالية فكرة التوحّد، حتى أنّ أيّ مشروع سياسي موحّد للفصائل يتوقّف وجوده على توحّد الجماعات المسلحة، أو على الأقل، على حد تعبير شهاب الدين "تكون الفصائل والكتائب معدودة"⁶⁷. مع إشارته إلى قيام عدد من النماذج العسكرية الموحّدة التي تمّ إنشاؤها، وهي: "الجهة الإسلامية" و"الاتحاد الإسلامي لأجناد الشام" و"جيش المجاهدين" و"جهة ثوار سوريا". وهذه النماذج تمّ تأليف كلّ منها من عدّة فصائل.

لكن، بالعودة إلى النماذج المذكورة، نجد أنّ أيّاً منها لم يكتب له الاستمرار، أو على الأقل، لم تحقّق الفعاليّة المفترضة فيها، سواء على مستوى وحدة الأهداف والبرامج أو على مستوى الانسجام والتّماسك، أو، في الحد الأدنى، على مستوى النشاط والحراك أو العمل الموحّد، بعيداً عن التنافس أو التنافر بين مكوناتها، والارتباط بتكوينات موحّدة أخرى تنافس المكوّن المقابل، هذا، فضلاً عن "أنّ المكونات الأساسيّة التي تشكّل منها حافظت على بنائها التنظيميّة المستقلّة عن الجهة، وبقيت أطراً منفصلة، تقيم تحالفاتها الخاصّة، وتخوض صراعاتها، الظاهرة والخفيّة، مع جماعات أخرى، داخل الجهة وخارجها، وظلّت الجماعات تعبّر عن نفسها، وتبرز هويّتها في مواقعها الخاصّة وإنجازاتها وبياناتها وأنشطتها"⁶⁸. بل إنّ انهيار بعض تلك النماذج الموحّدة، وتفكّك أواصر العلاقة بين أطرافها، ونشوب حروب ومعارك بين جماعاتها المفترض أنّها مؤتلفة، تدلّ، بما لا يدع مجالاً للشكّ، على عدم قابليّة فكرة التوحّد للحياة الطبيعيّة، وأنّها لا يعدو كونها محاولة بثّ للروح في مولود اصطناعي، يجري تشغيله متى دعت الضرورة وشعر أطرافه أو داعموه بالحاجة إليه أو بالخطر الدّاهم على وجودها أو مشاريعها ومصالحها، وهذا ما نجده في غالبية تلك النماذج وغيرها، التي لم يكتب لها الحياة أو البقاء، كـ"الجهة الإسلامية" و"جيش المجاهدين"

⁶⁶ - الحدث نيوز، "الزنكيون" خارج حلب.. خوفاً من لقاء مصر "حركة حزم"، 29 كانون الثاني 2016.

⁶⁷ - الجزيرة، لا مكان لـ "تنظيم الدولة" بسوريا، مرجع سابق.

⁶⁸ - المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق - الدراسات الاجتماعية، "حركة أحرا الشام: التحولات الهيكلية والسياسية الراهنة" ضمن سلسلة الحركات السلفيّة والقتاليّة، العدد الأول، شباط 2016، ص8.

و"جبهة ثوار سوريا" و"الجبهة الشّاميّة"، وحتى "الجيش السوري الحر" الذي انكمش تدريجاً، وتوزّعت أوصاله على فصائل متفرّقة، و"هيئة تحرير الشام" التي أصابها ما أصاب سواها من تفكّك وتشطّط ناتج عن انشقاق وخروج بعض مكوّناتها الأساسيّة منها أو التّنافر، بل التّقاتل بينها، كما هو الحال بالنسبة لحركة "نور الدين زنكي" التي أعلنت في أول كانون الأوّل 2016 عن تشكيل جسم عسكري، أطلق عليه "جيش حلب"، يضمّ كلّ فصائل حلب المسلحة، تعمل من خلال قيادة مركزيّة موحّدة ومستودعات موحّدة، لكنّ هذا الجيش لم يكتب له الاستمرار، بسبب "الأصدقاء قبل الأعداء"⁶⁹، على حدّ تعبير قيادي في الزنكي. وكذلك إعلان حركة الزنكي، في 28 كانون الثاني 2017، مع أربعة فصائل مسلحة أخرى هي: "جبهة فتح الشام"، و"لواء الحقّ"، و"جيش السنّة"، و"جبهة أنصار الدين"، حلّ نفسها، واندماجها، بشكل كامل، ضمن كيان عسكري جديد، تحت اسم "هيئة تحرير الشام"، بقيادة المهندس أبو جابر هاشم الشيخ⁷⁰، وأتى هذا الاندماج مرتبطاً، إلى حدّ كبير، بحدثين بارزين:

الأوّل، إبداء حركة الزنكي دعمها للهجوم الذي كانت قد شنته "جبهة تحرير الشام"، قبل ذلك بأسابيع فقط، على 5 من فصائل "الجيش الحر" في الشمال، بحجة مشاركتها في مؤتمر أستانة. بل إنّ "الزنكي" كانت رأس حربة الهجوم الذي قضى على "تجمّع فاستقم كما أمرت"، في حلب، في تشرين الثاني 2016، في الوقت الذي كانت المدينة قد دخلت حالة الحصار التي فرضتها قوّة النظام وحلفاؤها عليها⁷¹. وأسهمت حركة الزنكي، قبل 3 أيام تقريباً من اندماجها بالهيئة، في تمكين جبهة النصرة من القضاء على كلّ من: "جيش المجاهدين" في مدينة حلب والسيطرة على مقرّاتهم بشكل كامل، والقضاء على "الجبهة الشّاميّة" في منطقة حريتان في ريف حلب الشمالي، إضافة إلى تصفية "صقور الشام" وثلاث فصائل أخرى في أرياف حلب، وذلك من خلال تأمين حركة الزنكي معابر وطرق لوجستيّة لجبهة "النصرة"⁷²، علماً أنّ جميع تلك الفصائل كانت تجمعها والزنكي علاقة تحالف أو اندماج سابقاً. هذا مضافاً إلى إعلان الحركة موقف الحياد تجاه القتال بين "هيئة تحرير الشام" وحركة "أحرار الشام" في الشمال السوري المُحرّر، مؤكدة أنّ قوّاتها ستكون للفصل بين الجانبين، الأمر الذي كان من شأنه ترك الفرصة أمام النصرة للقضاء على الأحرار خاصّة وأنّ اتهامات وجّهت إليها بالمشاركة إلى جانب الهيئة⁷³.

الثاني، إعلان خمسة فصائل أخرى، بعد أيّام من تشكيل "هيئة تحرير الشام" إلى حركة "أحرار الشام"، هي: "ألوية صقور الشام"، و"جيش الإسلام-قطاع إدلب"، و"جيش المجاهدين"، و"تجمع فاستقم كما أمرت"، و"الجبهة الشّاميّة - قطاع ريف حلب الغربي". والفصال الخمسة المذكورة جميعها سبق لها أن دخلت بمواجهات مع حركة الزنكي أو "جبهة تحرير الشام"، وهما المكوّنان الأساسيّان لـ "هيئة تحرير الشام"، ما يجعل منها بمثابة جبهة مقابلة للهيئة، غايتها حماية نفسها من الافتراض منفردة من الهيئة.

لكنّ حركة الزنكي، كعادتها، لم يطل أمر انضمامها إلى الهيئة طويلاً، فهي ما لبثت، بعد 5 أشهر فقط، أن أعلنت في 20 تموز من العام نفسه خروجها من الهيئة، بذريعة موقفها الرافض لقرار الهيئة قتال أحرار الشام وتجاوز

⁶⁹ - أمانة رياض، "الزنكي" لـ "سمارت": جميع الفصائل بمدينة حلب انصهرت في جيش واحد، سمارت، 1 كانون الأوّل 2016.

⁷⁰ - الجزيرة، "فتح الشام" تندمج مع أربعة فصائل بسوريا، 28 كانون الثاني 2017.

⁷¹ - عقيل حسين، لماذا نجحت "الزنكي" في مواجهة "تحرير الشام"؟، المدن، 20 تشرين الثاني 2017.

⁷² - انظر: الميادين نت، النصرة تعلن حرب الإلغاء على خصومها في إدلب، 26 كانون الثاني 2017.

⁷³ - الدرر الشّاميّة، حركة نور الدين الزنكي تعلن الحياد تجاه القتال بين الفصائل، 20 تموز 2017.

دعوات المجلس الشرعي فيها⁷⁴، ومن ثم الدخول بمواجهة مع الهيئة، من خلال المواجهة المباشرة مع "جبهة تحرير الشام" (النصرة). على خلفية اعتقالات متبادلة بين الطرفين في ريف حلب الغربي. سببها الحقيقي، يندرج في إطار الصراع على النفوذ في المناطق، وتجلّى بعد اتفاق "خفض التصعيد"⁷⁵ و"التدخل التركي في ريف حلب الغربي"⁷⁶. وعلى أي حال، فقد عرف عن حركة "نور الدين الزنكي" علاقاتها المتقلّبة مع الجماعات الأخرى، ودخلت في العديد من التحالفات، وشاركت في إنشاء أطر وعرف عسكريّة مشتركة؛ ثم عادت وانسحبت منها، كما أسلفنا، وكان آخرها دخولها في تشكيل "هيئة تحرير الشام" و"جيش الفتح"، وانسحابها منهما لاحقاً. ووفقاً لسجل حركة الزنكي في هذا المجال، فإن أكثر تحالفاتها، إن لم يكن كلّها، كانت تأتي تلبية لرغبة خارجيّة أو طمعاً في هضم فصيل والهيمنة على قراره أو مسارعة لتقوية جبهة المواجهة مع الجيش السوري وتنظيم "داعش"، ومنع تمدّد أيّ منهما في منطقتي إدلب وحلب. وقد برز ذلك بوضوح في انضمام الحركة إلى غرفة عمليات "جيش الفتح"⁷⁷ في 24 أيلول 2016، الذي جاء على وقع سيطرة الجيش السوري على مدينة حلب، في 12 كانون الأول من العام 2016، وتمدّده في أرياف حلب الجنوبي وحماة الشرقي، واقتربه من الحدود الإداريّة لمحافظة إدلب، واتّسع مناطق نفوذ تنظيم "داعش" شمال شرقي حماة، والخشية من عودته مرة أخرى لمحافظة إدلب، وكانت نشرت مجموعات إعلاميّة مقرّبة من "تحرير الشام" تسريبات حول اجتماع ضمّ الهيئة و"حركة أحرار الشام" و"نور الدين زنكي" و"فيلق الشام" و"جيش الأحرار"، بهدف الصّحّح بين الفصائل، والخروج بتشكيل عسكري، يجمع تلك الفصائل، وإعادة أحياء "جيش الفتح" الذي جمع فصائل، ساهمت بالسيطرة على محافظة إدلب في العام 2015⁷⁸، لكنّ المساعي أخفقت، ولم يكتب لهذا التشكيل، كغيره، النجاح.

XII. معارك حركة الزنكي مع الفصائل

خاضت حركة "نور الدين زنكي" عدداً من المعارك ضدّ فصائل مسلحة في منطقة حلب وإدلب، وبدا واضحاً أنّها حروب مفتعلة ذات نوايا توسعيّة وإلغائية للحركة. هدفها إنهاء فصائل ضعيفة، والتوسّع في بسط النفوذ على أنقاضها، رغم الأسباب التي دأبت الحركة على إعلانها لتبرير المواجهة مع الفصائل المستهدفة، ومن أبرزت تلك المواجهات المعركة التي شتتها الحركة، في أوائل شهر تشرين الثاني من العام 2016، و"كتائب أبو عمارة" من جهة، ضدّ "تجمّع فاستقم كما أمرت"، على خلفيّة بدأت في الأحياء الشرقيّة المحاصرة، وتوسّعت لتشمل ريف حلب

⁷⁴ - موقع رووداو، حركة "نور الدين الزنكي" تعلن انفصالها عن "هيئة تحرير الشام"، 20 تموز 2017.

⁷⁵ - خالد الخطيب، "تحرير الشام" و"الزنكي": بداية المواجهة الأخيرة؟، المدن، 8 تشرين الثاني 2017.

⁷⁶ - عنبل بلدي أونلاين، "أحرار الشام" تطرح مبادرة لـ "المصالحة" بين فصائل المعارضة، 9 تشرين الثاني 2017.

⁷⁷ - "جيش الفتح" تشكل من كبرى الفصائل المسلحة في محافظة إدلب، كغرفة عمليات مشتركة، وأعلن عنه بتاريخ 24 آذار 2015، بحف السيطرة على مدينة إدلب، وضم التشكيل، حينها، كلاً من "جبهة النصرة، أحرار الشام، فيلق الشام، جند الأقصى، صقور الشام جيش السنة، لواء الحق، أجناد الشام". وفي أوائل شهر أيار 2016 أعلنت مصادر مسلحة عن إعادة تشكيل هذا التشكيل، عبر ضم الفصائل التالية: أحرار الشام، جبهة النصرة، فيلق الشام، لواء الحق، أجناد الشام، الحزب الإسلامي التركستاني، جيش السنة. وأعيد تشكيل "جيش الفتح" مرة أخرى في 12 كانون الأول 2017. (شبكة شام، فصائل كبرى تعلن توحدها في غرفة عمليات "جيش الفتح" لتحرير مدينة إدلب، 24 آذار 2015. وأورينت نت، إعادة تشكيل "جيش الفتح" .. وهذه هي الفصائل المنضوية تحت رايته؟، 2 أيار 2016).

⁷⁸ - أحمد مراد، مفاوضات بين الفصائل لإحياء "جيش الفتح" شرقي حماة، المدن، الثلاثاء 12 كانون الأول 2017.

الغربي وريف إدلب الشمالي. وقيام عناصر الزنكي بمداهمة مقرات "فاستقم" ومصادرتها كميات من الذخائر والأسلحة وطردها مقاتليه من مواقعهم⁷⁹، وأفضت المواجهة إلى إنهاء فصيل "تجمع فاستقم كما أمرت" بمدينة حلب⁸⁰.

إلا أنّ أهم وأبرز المعارك التي خاضتها حركة الزنكي هي التي وقعت، في 7 تشرين الثاني 2017، مع "هيئة تحرير الشام"، بعد خروجها منها، كما أسلفنا، فهي، بحسب وصف حركة الزنكي، "حرب مفتوحة"⁸¹، مصيرية وشاملة. وقد شكّل صمود الحركة أمام الهيئة وتمكّنها من السيطرة على بعض مواقعها ومقارّها وقتلها بعض القياديين فيها، حدثاً بارزاً ومؤشراً على مستوى التجهيز والقدرات العسكرية، رغم حدّة المواجهة، واستمرارها على مدار أسبوع، الأمر الذي مكّنها من مواجهة قوّة الهيئة، "التي سبق لها وفككت نحو عشرين من قوى المعارضة العسكرية، بما فيها فصائل كبرى، بل إن "الزنكي" استطاعت أن تفرض على الهيئة هدنة لم تكن الأخيرة لتقبلها مع أيّ من الفصائل الأخرى التي قوّضتها، رغم كلّ التّداءات التي كانت توجّه لها وتتميّ عليها القبول بالحوار والتّحكيم. وعزا بعض المراقبين هذا الصّمود إلى أسباب تتعلّق قوّة الحركة وبنيتها الداخلية المتماسكة وارتباطها بمحيطها، وتوفيرها الشّروط الموضوعيّة⁸².

وسبّبت المواجهة بين حركة "نور الدين زنكي" و"هيئة تحرير الشام" في تصدّع الهيئة وانسحاب شخصيّات وفصائل أخرى منها، لتعود إلى تشكيلاتها الأولى المستقلّة أو للاندماج بتشكيلات ثانية، أبرزها: "جند الملاحم"، و"جيش الأحرار"، وشخصيّات مهاجرة من جنسيّات عدّة، والشرعيّان البارزان عبد الله المحيسني ومصلح العلياني⁸³، وغيرهم، وذلك على خلفيّة رفض القتال الدائر، وإعلانها الالتزام بالحياد.

هذا التصدّع الذي أصاب "هيئة تحرير الشام"، بانشقاق حركة "نور الدين زنكي"، لقي ترحيباً من حركة "أحرار الشام"، و"فرصة سانحة لباقي مكوّنات "الهيئة" لإعادة النّظر في تموضعها واتّخاذ قرار جريء بالانحياز إلى ما أسمتها "الثّورة"، والوقوف في وجه "الجولاني" وبغيه". ورأت في استقالات الشخصيّات والفصائل الأخرى وتعليق أطراف كثيرة لعملها في الهيئة لرفضها المشاركة في البغي خطوة "هامّة"⁸⁴.

XIII. الموقف من داعش

لا يختلف موقف حركة "نور الدين زنكي" المعادي لتنظيم "داعش" عن موقف بقيّة الفصائل المسلحة الأساسيّة الأخرى، كجبهة "النصرة" و"تحرير الشام" و"جيش الإسلام" و"وفيلق الرحمن"، وقليلة هي الجماعات المسلحة في سوريا تربطها علاقة إيجابيّة بتنظيم "داعش"، ما لم تكن جزءاً منها، ولو بعناوين أخرى، وكلّ تنظيم يرتبط

⁷⁹ - خالد الخطيب، معارك "الزنكي" و"فاستقم كما أمرت" .. التوقيت القاتل، المدن، 3 تشرين الثاني 2016.

⁸⁰ - بلدي نيوز، "العكيدي" يرد على "الزنكي": ملتزمون بالتقاضي لأي هيئة قضائية في حلب، 12 تشرين الثاني 2016.

⁸¹ - إيمان حسن، "الزنكي": دخلنا "حرب مفتوحة" ضد "تحرير الشام" شمالي سوريا، سمارت، 10 تشرين الثاني، 2017.

⁸² - عقيل حسين، لماذا نجحت "الزنكي" في مواجهة "تحرير الشام"؟، مرجع سابق.

⁸³ - شبكة شام، بدأت بالزنكي وصولاً لجند الملاحم ... توالي الانشقاقات عن هيئة تحرير الشام رفضاً لممارساتها بحق الفصائل الأخرى، 12 تشرين الثاني 2017.

⁸⁴ - تنسيقيات المسلحين، حركة أحرار الشام "ترحب بانشقاق" "حركة نور الدين الزنكي" عن "هيئة تحرير الشام"، 20 قوز 2017.

بالتنظيم أو يشتبه في ارتباطه به مصيره العزلة أو المواجهة المسلحة من الآخرين والبطش، إن أمكن، ولا تشفع له إلا قوته، كما هو حال جيش "خالد بن الوليد" مثلاً.

فبالخلاف بين حركة "نور الدين زنكي" وتنظيم "داعش" مستحكم، وقد شهدت الساحة السورية صراعاً حاداً وحاسماً ومنازلات شديدة بين الطرفين، ووقعت معارك وعمليات تفجير واغتيالات ومحاولات اغتيال عديدة بينهما، وقد عملت حركة الزنكي على ملاحقة عناصر "داعش" وخلاياها النائمة في حلب؛ ومتابعته الأمنية، والتي نفذ بعضها عمليات اغتيال وتفجيرات، استهدفت قياديين من فصائل مسلحة بحلب. ومنها عملية التفجير البارزة، يوم الخميس 17 تشرين الثاني 2016، بواسطة سيارة مفخخة، واستهدفت "مستودع ذخيرة" لحركة "نور الدين زنكي" في مدينة أعزاز في ريف حلب في شمال سوريا. وأدت إلى قتل 25 شخصاً وجرح العشرات، في الوقت الذي كانت تدور معارك عنيفة بين فصائل مسلحة مدعومة من قوات تركية مع تنظيم "داعش" في ريف حلب الشمالي الشرقي، وصلت خلالها الفصائل إلى مدينة الباب، آخر معقل التنظيم في محافظة حلب⁸⁵.

كما شنت حركة "نور الدين زنكي"، بالتعاون مع فصائل أخرى في حلب، حملات أمنية واسعة، لمكافحة الخلايا النائمة التابعة لتنظيم "داعش" والمنتشرة في أحياء المدينة، أبرزها الحملة الأمنية التي شاركت فيها فصائل عديدة، منها "الجهة الشامية" وحركة "نور الدين زنكي" و"تجمع فاستقم كما أمرت" وحركة "أحرار الشام" و"الفرقة 16"، يوم الأربعاء 23 آذار 2016، وتم خلالها اعتقال أحد خطباء جوامع حي الشعار، محمد عاصي، متهمين إياه بالدفاع عن التنظيم، والتحريض على قتال الفصائل واتهامهم بالعمالة⁸⁶.

واستناداً إلى خطاب قادة حركة "نور الدين زنكي"، فإنّ الخلاف مع تنظيم "داعش" ناتج عن بعدين أساسيين: أيديولوجي وسياسي؛ فالتنظيم، من الوجهة الأيديولوجية، ينطلق من تكفير الجماعات كافة، وهذا يشمل حركة الزنكي وغيرها، وهو، من أجل ذلك، يعادي كلّ الجماعات، المسلحة وغيرها، ويدخل معها في نزاعات وحروب، في سبيل تثبيت دولة الخلافة وإلغاء سائر الكيانات الأخرى، وبالتالي، فإنّ أهداف التنظيم تتعدى بعد القضية السورية، وتتخذ منحى أيديولوجياً،

وعلى حدّ تعبير قائد الزنكي العام توفيق شهاب الدين، فإنّ تنظيم "داعش" ينطلق من اعتقاد "أنهم هم الوحيدون أصحاب الحق"، وأنّ قضيتهم لو كانت جزءاً من القضية السورية ومن الثورة السورية وأهدافها منشودة مثل بقية الفصائل ما اختلفت مع شقيقتها النصر، عندما انشقت عن النصر مباشرة بدأت تقتل في إخوانهم الذين كانوا البارحة في خندق واحد معهم⁸⁷.

وفي البعد التكتيكي العسكري، لا يرى شهاب الدين فرقاً، في قتاله، بين تنظيم "داعش" والنظام السوري، ولا يرى مانعاً في المشاركة في محاربة التنظيم، لكنّ ضرب التنظيم وقتاله، دون ضرب مواقع النظام، يقدّم خدمة للنظام نفسه؛ ولذا، ثمة ضرورة برأيه في اتخاذ دول التحالف المشاركة في ضرب التنظيم في سوريا "قراراً، يسهم في قصف وضرب مواقع نظام الأسد إلى جانب التنظيم": ذلك "أنّ ضرب التنظيم لوحده يعني تقوية نظام الأسد، لوجود

⁸⁵ - مونت كارلو الدولية، سوريا: مقتل 25 شخصاً على الأقل بمفخخة استهدفت حركة نور الدين زنكي في ريف حلب، 17 أيلول 2016.

⁸⁶ - بلدي نيوز، حملة أمنية واسعة للقضاء على خلايا تنظيم "الدولة" بحلب، 25 آذار 2016.

⁸⁷ - الجزيرة، لا مكان لـ "تنظيم الدولة" بسوريا، مرجع سابق.

احتكاك على بعض جبهات القتال بين النظام والتنظيم، وبالتالي، إذا تمّ ضرب التنظيم فقط، فإنّ قوّات الأسد ستسيطر على مناطق سيطرة الأوّل⁸⁸.

XIV. الموقف من التسوية في سوريا

تدعي حركة "نور الدين زنكي" أنّ قرارها كان وسيبقى مستقلاً، و ينبع من قناعتها بأهمية تلازم المسارين السياسي والعسكري في عملية تغيير النظام، وإقامة دولة الحرية والعدالة والكرامة⁸⁹، وحركة الزنكي هي واحدة من الفصائل الـ 71 الموقعين على البيان المشترك حول مبادرة المبعوث الدولي الأممي ستيفان دي ميستورا المتعلقة بـ "مجموعات العمل"، في الثاني من تشرين الأوّل 2015، والتي أكدت الفصائل فيه على العمل من أجل حلّ سياسي، شرط منع إعادة إنتاج النظام الحالي، والتعامل بإيجابية كاملة مع المبعوث الأممي، على أن يسبق ذلك خطوات حقيقية من المجتمع الدولي لكسب ثقة الشعب السوري، واعتبار أنّ الرئيس بشار الأسد لا مكان له في أيّ عملية سياسية، وحلّ الأجهزة الأمنية، وإعادة هيكلة المؤسسة العسكرية، مع التأكيد على ضرورة الحفاظ على مؤسسات الدولة، ومنع تفككها، والحيولة دون وقوع البلاد في المزيد من الفوضى، وتنفيذ القرارات الأممية⁹⁰.

ورغم رفض حركة "نور الدين زنكي" والفصائل الأخرى المشاركة في التسوية السياسية في سوريا، الدّخول في أيّ تسوية سياسية، ما لم تؤخذ في الاعتبار الشروط السابقة التي تضمّنها البيان المشترك حول "مجموعة العمل" أو في غيره من البيانات المواكبة للقاءات ومؤتمرات التسوية في سوريا، سواء ما يتعلّق بمؤتمر الرياض أو بمؤتمر جنيف أو مؤتمر الأستانة، وغيرها، فقد شاركت الفصائل في كلّ تلك المؤتمرات واللقاءات التي عقدت لهذه الغاية، رغم إبدائها المتكرّر التحفّظ على الشرط المتعلّق بوضع الرئيس السوري الحالي بشار الأسد في العملية السياسية، والإيحاء بالانسحاب أو عدم المشاركة في لقاءات التسوية المنعقدة، واللجوء إلى إعلان مواقف شديدة الלהجة تجاه بعض الدّول الراعية أو المشاركة في رعاية التسوية، كروسيا وإيران، واتّهامها بالعمل على إبقاء الرئيس السوري والنظام الحالي، ودعمه، وأنّ ما يجري، على حدّ تعبير قائد حركة الزنكي العام توفيق شهاب الدين، "هو مجرد لعبة"، حتى من أميركا، وأنّها تنظر إلى المعارضة السوريّة وكأنّها "عبارة عن ورقة أصبحت في أيدي الشرق والغرب، يلعبون فيها على مصالحهم الشخصية والذي يدفع الثمن هو الشعب السوري من دمه... هذه الدّول لديها مصالح مع بعضها البعض، تريد أن تمرّر هذه المصالح على أكتاف الشعب السوري"⁹¹.

ويتّسم موقف الجماعات المسلحة المشاركة في عملية التسوية بالتردّد وعدم الثّبات والقناعة الرّاسخة تجاه المبادرات المطروحة، ويكاد يكون ثابتاً ومكرّراً عند كلّ محطة تفاوضيّة أو مبادرة، وهو الموقف نفسه الذي أعاد

⁸⁸ - زمان الوصل، "الزنكي" تطالب بأن تشمل الضربة الأمريكية قوات النظام والتنظيم، مرجع سابق.

⁸⁹ - انظر: المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق - الدراسات الاجتماعية، "حركة أحرا الشام: التحولات الهيكلية والسياسية الراهنة" ضمن سلسلة الحركات السلفية والقتالية، مرجع سابق، ص 8.

⁹⁰ - المرجع السابق نفسه.

⁹¹ - الجزيرة، لا مكان لـ "تنظيم الدولة" بسوريا، مرجع سابق.

إعلانه 21 فصيلاً عسكرياً معارضاً*، في آخر محطة تفاوضيّة، بما فيهم حركة "نور الدين زنكي"، في بيان مشترك، عشية "مؤتمر الرياض 2"، يوم الثلاثاء 28 تشرين الثاني 2017، حيث هاجموا فيه المؤتمر، وأعلنوا رفضهم لنتائجه، وعدم اعترافهم بتمثيل الوفد الذي انبثق منه، واعتبروا أنّ المؤتمر "يأتي في سياق المؤتمرات التي تحاول الالتفاف على مطالب الثورة السوريّة"، وأكدوا التمسك بأربع نقاط رئيسيّة، وهي: رفض أيّ دور للرئيس السوري بشار الأسد، وفريقه الحاكم في المرحلة الانتقاليّة، ولا في مستقبل سوريّة، والتمسك بهدف المفاوضات الرئيسي، و"هو تشكيل هيئة حكم انتقاليّة كاملة الصلاحيّات، من خلال عمليّة انتقال سياسي شاملة، وفق مرجعيّة القرارات الأمميّة ذات الصلّة، إضافة لبيان الرياض الأوّل الصّادر بتاريخ 10 كانون الأوّل 2015"، ورفض إدخال أيّ جهة معاديّة للثورة في جسمها التّفاوضي، كمنصّي القاهرة وموسكو، اللتين تعدّان، بنظرهم، جهتين معاديتين للثورة، وأنّهما تعملان لأجل بقاء الرئيس الأسد في العمليّة السياسيّة. معتبرين أنّ الهيئة العليا للمفاوضات "لن تتمتع بشريّة داخلية ولا خارجيّة، ما لم يتمّ تصحيح التمثيل في بنيتها، واختيار شخصيّات ثوريّة، تلتزم بما جاء في وثيقي المبادئ الخمسة للثورة السوريّة وميثاق الشرف الثّوري"⁹².

وعلى أيّ حال، فإنّ حركة "نور الدين زنكي"، رغم موافقتها المعلنة على التّسوية السوريّة الجارية، كما هو شأن فصائل "الجيش السوري الحر" الأخرى، وقبولها المشاركة باللقاءات الدّوليّة والإقليميّة المنعقدة لهذه الغاية، إلا أنّ موافقتها تبقى مجرد إعلان، لا يعكس صورة واقع هذه المنظّمة وأعمالها الشّائنة، التي تسهم، بفاعليّة، في تقويض مؤسسات الدّولة السوريّة، وتفكيكها، وبثّ الفوضى، ونشرها في البيئات الخاضعة لها، وعدم الالتزام بالقوانين والقرارات الدّوليّة، خلافاً للمبادئ المعلنة التي تدّعي الحركة تبنيها والالتزام بها.

خلاصة

إنّ حركة "نور الدين زنكي"، رغم انتمائها الرسمي إلى "الجيش السوري الحر"، الذي ينبغي أن يتّسم بصفة "الاعتدال" وفق التّصنيف الأميركي، لم تتمكّن من إبراز صورة نمطيّة إيجابيّة، توائم ما تدّأب الولايات المتّحدة الأميركيّة على تقديمها للمجتمع الدّولي عنها، بل، على العكس، إنّ نموذج حركة الزنكي الفعلي الذي قدّمته، خلال السنوات الماضيّة، يجعلها أقرب إلى نموذج الحركات التكفيريّة، والتي لا تبعد كثيراً عن النماذج المتطرّفة، كتنظيم "داعش" و"جبهة النصرة" و"جيش الإسلام" وغيرها، وهو حال الكثير من مكوّنات "الجيش الحر" الذي طغت على ألوّيته وفرقه هذه الصبغة، بسبب الأنشطة والأعمال المنافية للقوانين الدّوليّة والإنسانيّة.

وتغيب على أنشطة حركة الزنكي وتوجّهاتها المبادئ والرؤى الثابتة إزاء القضايا والعلاقات، بصورة عامّة، وتطغى، بدلاً منها، حالة التردّد والقلق، وهي صفة تتشارك فيها كلّ الفصائل المصنّفة معتدلة، بالنظر إلى توجّهاتها وأنشطتها المنافية للاعتدال، وعلاقاتها بقوى مصنّفة "إرهابيّة"، وتبرز حال حركة الزنكي المتردّدة والقلقة، في كلّ مستويات

* الفصائل الـ 21 هي: حركة "أحرار الشام"، وحركة "نور الدين زنكي"، و"لواء سليمان شاه"، و"الفرقة 404"، و"تجمع فاستقم كما أمرت"، و"لواء المعتصم"، و"لواء صقور الشمال"، و"الفرقة 406"، و"الفرقة 312"، و"جيش العزة"، و"الفرقة التاسعة"، و"كتائب ثوار الشام"، و"لواء 51"، و"الفرقة الشماليّة"، و"ألوية سيوف الشام"، و"لواء الخامس"، و"فوج المصطفى"، و"الفرقة 400"، و"الفوج الأوّل"، و"لواء السلطان عثمان"، و"الفرقة 401".

⁹² - مرايا نيوز، 21 فصيلاً عسكرياً ونشطاء سوريون يرفضون مخرجات "الرياض 2"، الأربعاء 29 تشرين الثاني 2017.

نشاطها وبنيتها وقيادتها وتحالفاتها وعلاقاتها مع نظرائها من الفصائل ورؤيتها تجاه مستقبل سوريا، وهي في كلّ ذلك تبدو حركة غير واثقة ولا ثابتة، ومتحفّزة في إطار الصّراع والتّنافس مع القوى المسلحة التي يخشاها أو تخشاه.



المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق
The Consultative Center for Studies and Documentation

مؤسسة علمية متخصصة تُعنى بحقلي
الأبحاث والمعلومات، وتهتم بالقضايا
الاجتماعية والاقتصادية وتواكب المسائل
الاستراتيجية والتحول العالمية المؤثرة.

هاتف: 03/836610

فاكس: 01/836611

خليوي: 03/833438

البريد الإلكتروني:

dirasat@dirasat.net

www.dirasat.net

الرمز البريدي:

Baabda 10172010

P.O. Box: 24/47

Beirut - Lebanon

صادر عن المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق

اعداد : مديرية الدراسات الاجتماعية

تاريخ النشر: شباط 2018

العدد : السادس

الطبعة الاولى

القياس: 24 × 29